الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

1985
جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية *Faculty of Humanités and Social Sciences*

قسم: علم الاجتماع *Department :Sociology*

مطبوعة بيداغوجية في مقياس:

مدخل إلى الأنثروبولوجيا

موجهة لطلبة: سنة أولى جذع مشترك علوم اجتماعية
السداسي: الأول

إعداد الأستاذ:

د. أحمد الطيب سمية

2026-2025

فهرس محتوى برنامج مقياس:
مدخل إلى الأنثروبولوجيا

مقدمة

01/- المحاضرة الأولى: مفهوم الأنثروبولوجيا – الاثنوغرافيا- الاثنولوجيا.

أولاً: الأنثروبولوجيا

ثانياً: الاثنوغرافيا

ثالثاً: الاثنولوجيا

رابعاً: الأركيولوجيا

خامساً: علم اللغويات.

02/ المحاضرة الثانية: علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية.

(من حيث: النشأة/ الموضوع/ المنهج)

أولاً: الأنثروبولوجيا والفلسفة.

ثانياً: الأنثروبولوجيا وعلم النفس.

ثالثاً: الأنثروبولوجيا والتاريخ.

رابعاً: الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع.

03/ المحاضرة الثالثة: تاريخ الأنثروبولوجيا:

أولاً: التطبيقات الأنثروبولوجية قبل نشأة الأنثروبولوجيا.

- الحضارات المائية (الحضارة المصرية).

- اليونان والرومان.

- الحضارة العربية الإسلامية.

- العصور الوسطى

- أوربا في عصر النهضة والأنوار.

- القرن التاسع عشر والتوسع الاستعماري.

ثانياً: نشأة الأنثروبولوجيا.

4/ المحاضرة الرابعة: فروع الأنثروبولوجيا وأقسامها.

أولاً: الأنثروبولوجيا العضوية.

ثانياً: الأنثروبولوجيا الثقافية.

ثالثاً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

رابعاً: الأنثروبولوجيا النفسية.

5/ المحاضرة الخامسة: من علم الاجتماع إلى الأنثروبولوجيا.

6/ المحاضرة السادسة: الأنثروبولوجيا التقليدية، الموضوع والهدف.

7/ المحاضرة السابعة: التيارات الأنثروبولوجية.

أولاً: التيار التطوري

ثانياً: التيار الانتشاري التاريخي

ثالثاً: التيار الوظيفي.

8/ المحاضرة الثامنة: الأنثروبولوجيا الحديثة. (الموضوع والهدف) وأهمية الأنثروبولوجيا في العصر الحالي.

9/ المحاضرة التاسعة: النظريات الأساسية في علم الأنثروبولوجيا

10/ المحاضرة العاشرة: الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال.

11/ المحاضرة الحادي عشرة: منهج البحث والتقنيات في الأنثروبولوجيا.

أولاً: الإثنية المنهجية.

ثانياً: الوظيفية.

ثالثاً: البنيوية.

رابعاً: تقنيات البحث الميداني.

12/ المحاضرة الثانية عشر: علم الآثار (النشأة والتطور).

13/ المحاضرة الثالثة عشر: المدارس والفروع والتخصصات والعلوم المساعدة لعلم الآثار.

خاتمة

قائمة المراجع

مقدمة:

يأتي هذا المقياس الذي بين أيدينا والذي يحمل عنوان: **"مدخل إلى الأنثروبولوجيا"**، والمُستهدف فئة طلبة سنة أولى جذع مشترك علوم اجتماعية، **(بمعامل**: 02، **ورصيد**: 05، ضمن **السداسي** الأول)، **ليُعرف** الطالب بأبجديات علم الإنسان، وليساعد الطالب كذلك على إدراك واستيعاب أهمية الدراسات الأنثروبولوجية وأهمية الدراسات الأمبريقية، وذلك من خلال عرض مفصل لمفهوم الأنثروبولوجيا والمفاهيم القريبة منها (اثنوغرافيا، اثنولوجيا، اركيولوجيا، علم اللغويات)، وليقف هذا المقياس كذلك على طبيعة علاقة هذا العلم ببقية العلوم الاجتماعية الأخرى (الفلسفة، علم النفس، التاريخ، علم الاجتماع)، كما يسمح للطالب بتحقيق الإحاطة المعرفية بتاريخ ونشأة هذا العلم، والمرور بأهم التيارات والنظريات الأساسية ضمن هذا الحقل، الأمر الذي يقود إلى تعزيز التكوين القاعدي لطالب في مجال العلوم الاجتماعية، إضافة إلى إكساب الطالب بمعارف حول الأنثروبولوجيا الحديثة من حيث الموضوع والهدف وكذا أهمية الأنثروبولوجيا في العصر الحالي، دون أن ننسى تقديم مادة علمية ثرية حول النظريات الأساسية في علم الأنثروبولوجيا، وتعريف الطالب بالدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال، ولبناء الطالب من الناحية المنهجية فقد استهدف المقياس أيضاً تزويد الطالب بكل ما يتعلق بمنهج البحث والتقنيات في الأنثروبولوجيا. اضافة إلى

تعريف الطالب بعلم الآثار من حيث (النشأة والتطور) وكذلك إبراز المدارس والفروع والتخصصات والعلوم المساعدة لعلم الآثار.

1- المحاضرة الأولى: مفهوم الأنثروبولوجيا - الاثنولوجيا- الاثنوغرافيا .

تمهيد.

نسعى من خلال المحاضرة الأولى، إلى تزويد الطالب بمعارف قاعدية حول الأنثروبولوجيا وذلك من خلال تحديد مفهوم الأنثروبولوجيا، موضوعاتها، وأهميتها وأهدافها العامة. إضافة إلى تحديد خصائص علم الأنثروبولوجيا والمميزات التي تجعله يختلف عن باقي العلوم الاجتماعية الأخرى.

اضافة إلى أن المعارف المتحصل عليها ضمن هذا السياق، تساهم في تبسيط ارتباط وتداخل الأنثروبولوجيا بكل من الإثنوغرافيا، الإثنولوجيا، والأركيولوجيا وعلم اللغويات. ونستجلي بذلك الفروق بينها.

أولاً: الأنثروبولوجيا(Anthropology).

الأصل اللغوي والاشتقاقي لكلمة أنثروبولوجي (Anthropologie/Anthropology) يتكون من شقين الأول Anthropo ومعناها الإنسان، والثاني logie ومعناها علم. دراسة. والكلمتان معاً تعني علم الإنسان. وهذا العلم يعنى بالدراسة النظرية العلمية للإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً له وظائف اجتماعية وآثار حضارية ومعالم ثقافية ومظاهر فكرية. **(سمير حجازي، د. سنة، ص217)**

وفي ضوء هذا التعريف يبدو أن ذلك العلم يهتم بدراسة الإنسان من النواحي الاجتماعية، والثقافية، والبيولوجية. وعلى هذا الأساس فإن فروع هذا العلم تتمثل في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، والثقافية، والبيولوجية. **(سمير حجازي، د. سنة، ص217)**

وتعرف أيضاً، بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث تركيبه الجسمي وبنائه البدني والعقلي وصفاته الجسمية المختلفة، وعلاقاته الاجتماعية مع الآخرين وتفاعله مع المجتمع والبيئة والثقافة السائدة فيها. **(سمير حجازي، د. سنة، ص16)**

وقد عُرفت حسب "**حسن شحاتة**" و"**زينب النجار**" بأنها، "علم الأجناس البشرية، وهو يُعنى بدراسة المجتمعات البشرية من حيث العادات والتقاليد والمعتقدات ونظم المعيشة والثقافة السائدة وقيمها".**(حسن شحاته، زينب النجار، 2003، ص62)**

وللإشارة، فإن معنى أو مفهوم علم الأنثروبولوجيا يختلف من بلد إلى آخر. خصوصاً في فترة ما بعد عصر النهضة الأوربية وتحديدا في الفترة التي تَشكل فيها علم الأنثروبولوجيا واكتسب الصبغة الأكاديمية، فكان ما يدرجه البريطانيون تحت مسمى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، يَضعه الأمريكيون تحت عنوان الأنثروبولوجيا الثقافية، وأُصطلح على تسميته بالاثنولوجيا في الجامعات والمعاهد العلمية بفرنسا وغالبا ما أدرجت تحت مظلة علم الاجتماع في هذا البلد. **(مختار رحاب، 2022، ص19)**

وفي الولايات المتحدة تستوعب الأنثروبولوجيا على أنها مقاربة ذات أربعة مجالات هي: الأنثروبولوجيا البيولوجية وعلم الأثار وعلم اللغة الأنثروبولوجي والأنثروبولوجيا الثقافية. **(توماس هيلاند إريكسن، فين سيفرت نيلسن، 2014، ص8)**

وهنا قد يبادر كثيرون للتساؤل عما **يميز هذا العلم عن غيره من العلوم الأخرى**، فالعلوم، كعلم النفس، والاجتماع، والتاريخ، والبيولوجيا، والجغرافيا والطب، والهندسة، وغيرها من العلوم جميعها تهتم بالإنسان، فما الذي يفرق هذا العلم عن العلوم الأخرى؟

كما أننا حين ننظر إلى تلك العلوم المختلفة فإننا نرى أنه على سبيل المثال أن علم الاجتماع يعنى ويهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية الإنسانية، ويهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية، ويحاول أن يسهم في إيجاد حل لها. وعلم النفس هو ذلك العلم الذي يهتم بدراسة السلوك الإنساني، وعلم التاريخ يهتم بدراسة التاريخ الإنساني. والاقتصاد يهتم بدراسة السلوك الإنساني الخاص بالاستهلاك ومعرفة العرض والطلب، والطب يحاول أن يجد الحلول في رفع المستوى الصحي الإنساني، إلى ما هنالك من العلوم التخصصية الأخرى، فجميع هذه العلوم تهتم بدراسة الإنسان.

ويلاحظ أن هذه العلوم تعنى بدراسة الإنسان من جوانب متعددة، إلا أنها ليست جوانب شاملة، بمعنى أن هذه العلوم تختص بدراسة

الإنسان في إطار علمي محدد وفق أسس منهجية ونظرية محددة تقوم عليها. وعلى الرغم من أن تلك العلوم تعتمد كل منها على الآخر اعتماداً مباشراً، وذلك تحت خطة ما يسمى بالعلوم البينية (interdisciplinary approach)، فإن كل علم وكل فرع من المعرفة له قواعده العلمية ومناهجه المحددة التي انطلق منها، والذي جعل هذا النوع من المعرفة يهتم بجانب من الجوانب التي تقدم المنفعة للإنسان بكونه الكائن البسيط على العموم.

أما الأنثروبولوجيا فهو ذلك العلم الذي يُعنى بدراسة الإنسان من جميع جوانبه سواء أكانت فيزيقية، أو ثقافية، أو اجتماعية، أو تاريخية، أو نفسية أو غير ذلك. فهو ذلك العلم الشمولي الذي يهتم بدراسة الإنسان من حيث أصله، وتطوره، ونموه وتنظيماته الاجتماعية والسياسية، وديانته، ولغته، وفنونه، وصناعاته.

فهو ذلك العلم الشمولي الذي استُلهم فاستمد المنهج والنظرية من هذا المنطلق الشمولي في دراسة الإنسان. هذه الشمولية تستمد من خلال فروع الأنثروبولوجيا المختلفة والتي تشكل جسراً بين العلوم الإنسانية والاجتماعية، والطبيعية، والطبية، وغيرها من العلوم. **(نبيل الحسني، 2009، ص16-17)**

وتأسيساً على ما تقدم، فإن الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان، ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحية

الأخرى من جهة، وأوجه الشبه والاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى. **(عيسى الشماس، 2004، ص15)**

وفي الوقت ذاته، يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام. فلا تهتم الأنثروبولوجيا بالإنسان الفرد، كما تفعل الفيزيولوجيا أو علم النفس، وإنما تهتم بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس، وتدرس الناس في أحداثهم وأفعالهم الحياتية. **(عيسى الشماس، 2004، ص15)**

ثانياً: الاثنوغرافيا (Ethnography).

الاثنوغرافيا هي علم وصفي صرف، إذ يقوم بتصوير لثقافة الشعوب ووصفها وبيان ما يسودها من نظم وعادات وتقاليد، دون الدخول في تحليل هذه المعلومات وايجاد الصلة بينها وبين بعضها بعض، فمهمته أشبه شيء بآلة التصوير، إذ ينقل صورة مضبوطة أمينة لما يسود الشعوب المدروسة من ثقافات وحضارات بلا زيادة ولا نقصان. ثم يأتي علم الاثنولوجيا فيحلل هذه "المادة الخام" التي جمعها علم الاثنوغرافيا، ويصنفها ويبوبها ويوجد العلاقات بينها حتى يصل إلى الكشف عن المبادئ العامة، أو القواعد والقوانين التي تخضع لك هذه الظواهر، ويصل ما بين هذه المبادئ من جهة والمبادئ العامة والمعروفة عند علماء الإنسان من جهة أخرى، ويقوم بما يتبع ذلك من المنهج العلمي المعروف...**(حسن شحاته سعفان، د. سنة، ص23-24)**

من ناحية أخرى، يقسم "**مارسيل موس**"، ابن أخت "**إميل دوركايم**" وصاحب العمل الرائع **الهدية** The Gift دراسة الأنثروبولوجيا إلى ثلاثة مستويات من التحقيقات: الإثنوجرافيا، والاثنولوجيا والأنثروبولوجيا. بالنسبة للإثنوجرافيا فيعرفها بأنها الدراسة المفصلة للأعراف والمعتقدات والحياة الاجتماعية، ويعرف الإثنولوجيا بأنها المهنة ذات الأساس التجريبي للمقارنة الإقليمية. أما بالنسبة للأنثروبولوجيا نفسها فيعتبرها المحاولة النظرية ذات البعد الفلسفي لصياغة تعميمات عن الإنسانية والمجتمع وفق نتائج البحث لكل من الإثنوجرافيا والإثنولوجيا. **(توماس هيلاند إريكسن، فين سيفرت نيلسن، 2014، ص8)**

ويطلق هذا المصطلح (الاثنوغرافيا) عادة على طائفة من الأعمال سواء تلك التي تقوم بملاحظة سلوك الجماعة الاجتماعية ملاحظة مباشرة، أو تلك التي تقوم على إعداد وصف مكتوب لذلك السلوك. كما يشير هذا المصطلح أحياناً إلى العمل الميداني نفسه. ويقترن هذا المصطلح بشكل عام اقتراناً وثيقاً بأساليب البحث في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

هذا على الرغم من أن علماء الاجتماع الذين يضطلعون بدراسة المجتمع المحلي يقومون بعمل ميداني بالتأكيد، وذلك عندما يُجرون أي

شكل من أشكال دراسة الحالة. وتعد الملاحظة بالمشاركة هي الأسلوب الرئيسي في البحث الإثنوغرافي.

ومن النماذج الكلاسيكية لذلك دراسة "**وليام فوت وايت**" عن البناء الاجتماعي للحي المتخلف الذي كان يسكنه الإيطاليون في إحدى المدن الأمريكية، وهي الدراسة المعنونة باسم مجتمع النواصي المنشورة عام 1943. ثم كتب وايت بعد ذلك دراسة دقيقة عن المنهج الوصفي يتأمل فيه أسلوبه في العمل الإثنوغرافي. **(جوردن مارشال، د. سنة، ص87)**

ثالثاً: الاثنولوجيا (Ethnology).

هي الدراسة التاريخية والمقارنة للثقافات أو للشعوب، تمثل السلالة وحدة الدراسة الأساسية فيها، كما عرفها علم الإثنولوجيا السوفيتية أو الأوربية. وقد عرف "**كروبر**" ميدان دراسة الإثنولوجيا بأنه يشمل كلا من الثقافة والتاريخ والجغرافيا. بينما ميز "راد كليف براون" الإثنولوجيا، التي تعني في رأيه الدراسة التاريخية والجغرافية للشعوب، عن الدراسة الوظيفية للأنساق الاجتماعية والتي أطلق عليها مصطلح الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

ويستخدم مصطلح الإثنولوجيا بدلاً من مصطلح الأنثروبولوجيا في عديد من الدول الأوربية، وخاصة دول شرق أوربا، حيث يعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك "علم عام لدراسة الإنسان"، وهكذا تجمع

الإثنولوجيا بين الدراسة التاريخية والميدانية للثقافات الجماهيرية- والشعبية والقبلية وبين المقارنة الثقافية والتعميم بين الثقافات المتباينة. **(شارلوت سيمور. سميث، 2009، ص69-70)**

غالباً ما كانت تستعمل عبارة "اثنولوجيا" و "اثنوغرافيا" في فرنسا، حتى الحرب العالمية الثانية، بلا تمييز، إشارة إلى واحد من العلوم الإنسانية كان يميل حصرياً إلى دراسة المجتمعات "البدائية". وعندما كان يتم التمييز بينهما، كان من المتفق عليه اعتبار مهمة الإثنوغرافيا جمع المواد التي تحللها الإثنولوجيا. هناك كتابان نُشرا بعد الحرب، متولدين عن اختبار فكري طويل، ليعطيا الاثنوغرافيا وضعيتها: كتيب الاثنوغرافيا ل. م. موس (1947) ومنهج الاثنوغرافيا ل. م غريول (1957). وعندما قام ك. ليفي ستروس (1958)، بنقل عبارة "أنثروبولوجيا" من الولايات المتحدة إلى فرنسا في الخمسينات، فرض على الاثنوغرافيا مهمة جمع المعطيات، وعلى الإثنولوجيا مهمة تحضير مادتها على صعيد المجتمعات الخاصة، وعلى الأنثروبولوجيا مهمة إجراء التحليل المقارن للمجتمعات والثقافات، وتغذية التأمل النظري. **(بيار بونت، ميشال إيزار وآخرون، 2011، ص24)**

هكذا تتدخل الاثنوغرافيا في المرحلة الأولى من العمل الأنثروبولوجي، المرحلة "الميدانية"، بحيث أنه عندما نتكلم عن "منهج اثنوغرافي"، نقصد مجمل المناهج التجريبية – أو الطرائق- التي بواسطتها

يقيم الاثنولوجي في حالة البحث الميداني العلاقة ذات المردود العلمي الأكثر بينه وبين ميدانه. **(بيار بونت، ميشال إيزار وآخرون، 2011، ص24)**

بهذا الخصوص يصبح التحدث عن "منهج اثنوغرافي" بالمفرد مخادعاً بعض الشيء: إن تنوع المجتمعات وحالات البحث الميداني من جهة، وأهمية شخصية الباحث في إقامة علاقته بالميدان من جهة أخرى، يمنعان إمكانية ذكر وجود – وملاءمة- نوع من منهجية إجمالية تكون مسيرتها قابلة للتعريف الدقيق، مع أن ذلك لا يتناقض مع كون جمع بعض المعلومات يتطلب بوضوح اعتماد منهج بالغ الدقة، وحتى مشفر أحياناً. في السياق الغامض للمنهج الإثنوغرافي، يمكننا إذا فصل "تقنيات للبحث الميداني": فإجراء مسح للأراضي، وجمع أنساب أو اصطلاحات القرابة، ودراسة نظام زراعي، ولا نأخذ هنا إلا بعض الأمثلة، هي نشاطات ميدانية خاضعة لاستعمال بعض من هذه التقنيات. **(بيار بونت، ميشال إيزار وآخرون، 2011، ص24)**

انطلاقاً مما سبق، يمكن تحديد **أهم الأهداف** التي يسعى علماء الأنثروبولوجيا إلى تحقيقها وذلك وفق النقاط التالية:

- **وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفاً دقيقاً**، وذلك عن طريق معايشة الباحث لمجتمع الدراسة وتسجيل كل ما يقوم به أفرادها من سلوكات وتعاملهم في الحياة اليومية.

- **تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية** بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوري الحضاري العام للإنسان: (بدائي، زراعي، صناعي، معرفي، تكنولوجي.)

- **تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان**، وأسباب هذا التغير وعملياته بدقة علمية. وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وايجاد عناصر التغيير المختلفة.

-**اكتشاف القواسم المشتركة** بين البشر وكيفية زيادة الاختلافات في أنماط السلوك البشري وكذلك معرفة الطرق التي سيطرت بها الجماعات البشرية على بيئاتها من خلال الأساليب التكنولوجية والنظام الاجتماعي .

-**استنتاج المؤشرات والتوقعات لاتجاه التغير المحتمل** في الظواهر الإنسانية/ الحضارية التي تتمم بدراستها، وبالتالي لإمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة. **(عيسى الشماس، 2004، ص15)**

وعن **أهمية الأنثروبولوجيا**، فإن اهتمام الأنثروبولوجيا بدراسة المجتمعات كلها وعلى المستويات الحضارية يعتبر منطلقاً أساسياً في علم الأنثروبولوجيا وأهدافها ولكن على الرغم من التوسع في مجال الدراسات الأنثروبولوجيا مازالت الاهتمامات التقليدية للأنثروبولوجيا لاسيما وصف الثقافات وأسلوب حياة المجتمعات، ودراسة اللغات واللهجات المحلية

وآثار ما قبل تاريخ تؤكد من دون شك تفرد مجال الأنثروبولوجيا عن غيرها من العلوم بما فيها علم الاجتماع. ومن هنا كانت أهمية الدراسات الأنثروبولوجية في تحديد صفات الكائنات البشرية وايجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيداً عن التعصب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أصول علمية.

ومن هنا كانت أهمية الدراسات الأنثروبولوجية في تحديد صفات الكائنات البشرية، وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيداً عن التعصب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أية أصول علمية. **(عيسى الشماس، 2004، ص16)**

رابعاً: الأركيولوجيا (Archéologie).

وقبل أن نغوص في ما يحتويه علم الآثار، علينا العودة قليلاً إلى العلماء الذين تناولوا هذا العلم وحاولوا تحديده سواء كان في المعاجم أم في المؤلفات والأبحاث التي نشروها فنجد مثلاً قاموس "روبير الصغير Le) " (petit Robertيحدده بقوله: "إنه علم الأشياء القديمة وخاصة الفنون والصروح القديمة". **(منى يوسف نخلة، د. سنة، ص13)**

بينما نجد معاجم أخرى عديدة تعود بنا إلى أصل الكلمة الفرنسية أرخيولوجيا (Archéologie) فنقول أنها مأخوذة عن اليونانية ومركبة من كلمتين أساساً (Arkhaios) وتعني قديم و(logos)، وتعني بحث أو خطاب علمي. وعند العرب نجد أنه "علم القيافة أو متابعة الأثر، والأثر هو ما

بقى من رسم الشيء"، "وعلم الآثار" هو معرفة بقايا القوم من أبنية وتماثيل ومحنطات ونقود وما شاكل ...". **(منى يوسف نخلة، د. سنة، ص13-14)**

خامساً: علم اللغويات (Linguistique).

علم اللغة: هو العلم الذي يدرس اللغات من حيث ألفاظها وتراكيبها وأصولها، وما عسى أن يوجد بينها من متشابهات ومفارقات. وهذا العلم يدرس منذ وقت طويل في الجامعات في أقسام اللغات والفلسفة والاجتماع وغيرها. غير أن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) قد أنشأ فرعاً لدراسة علوم اللغات، أصبح من فروعه الرئيسية وذلك لأسباب كثيرة منها: أن اللغة تعد جزءاً هاماً من ثقافة أي شعب من الشعوب، وهي مرآة تنعكس على سطحها ثقافة أي شعب وميوله واتجاهاته الفكرية العامة، بل هي تقيس تطوره الفكري والاجتماعي. فعلم اللغة عندما يدرس كفرع من فروع علم الإنسان ليس إلا جزءاً من علم الإنسان الثقافي، والسبب الثاني لدراسة علم اللغة في مجال علم الإنسان هو أنه قد أتى علماء في القرن التاسع عشر وما قبله كانوا يقسمون الجماعات الإنسانية إلى سلالات على أساس اللغات المستخدمة عندها، فالشعوب التي تتكلم لغات متشابهة أو ترجع إلى أصل واحد تعد شعوباً ترجع إلى أصل سلالي واحد، فالشعوب التي تنتمي لغاتها إلى عائلة اللغات الهندية الأوربية ترجع إلى أصل الشعوب التي تتكلم اللغات السامية أو اللغات الحامية...إلى أخره

كل ذلك من العائلات اللغوية المختلفة التي قسموا إليها اللغات. وهذه الفكرة وإن كانت قد لاقت كثيراً من النقد ووجهت بكثير من الصعاب ظلت مسيطرة على الفكر الاجتماعي ردحاً طويلاً من الزمن. **(حسن شحاته سعفان، د. سنة، ص24-25)**

خلاصة.

مما سبق، نستخلص أن الأنثروبولوجيا علم إنساني جوهر اهتمامه نشوء الإنسان وحضارته وتطور ثقافته، فالأنثروبولوجيا علم شمولي؛ حيث يشمل جوانب متنوعة في دراسته للإنسان (عضوية، اجتماعية، ثقافية وحضارية، ونفسية...إلخ). وهذا ما جعل حقل الأنثروبولوجيا يتميز عن باقي العلوم الاجتماعية الأخرى بطابع دراسته للإنسان ومنهجيته الحقلية الميدانية. وهو يتداخل مع مفاهيم قريبة منه تنطلق من الاثنوغرافيا (المرحلة الوصفية) فالاثنولوجيا (المرحلة الثانية وتجسد التحليل والتفسير) وأخير الأنثروبولوجيا (الوصول لتعميمات ونظريات). أما الأركيولوجيا وعلم اللغويات فهي جوهر اهتمام الأنثروبولوجيا وهي تشكل فروعاً جزئية لها.

2- المحاضرة الثانية: علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية. (من حيث النشأة/ الموضوع/ المنهج)

تمهيد.

يرتبط علم الأنثروبولوجيا بمجموعة من العلوم الاجتماعية الأخرى، ونحن على دراية بأن هذه العلوم تجتمع بغرض تحقيق التكامل والتساند فيما بينها رغم خصائص كل حقل من هذه العلوم وميزاته، والضرورة العلمية ضمن هذا السياق تُحتم علينا إبراز مجالات الاستفادة بين هذه العلوم وتوضيح الفروق بينها، وذلك بهدف تحقيق نوع من الاستعاب لدى الطالب بأهمية هذه العلوم وضرورة النظر إليها على أنها علوم اجتماعية متكاملة ولا يمكن الاستغناء عليها في تحقيق أهداف العلم والوصول إلى الحقيقة.

أولاً: الأنثروبولوجيا والفلسفة.

...إن مصطلح "فلسفة" PhiloSophy يتكون من مقطعين. Philo وتعني حب أو محبة وSophia وتعني الحكمة وعلى هذا تغدو الفلسفة حب للحكمة أو محبة لها. ولقد تعارف الباحثون والمفكرون منذ عهد "**أرسطو**" وحتى عصورنا الراهنة بأن الحكمة التي يعشقها الفيلسوف ويتوجه إليها إما أن تكون **حكمة نظرية** أو **حكمة عملية**: محبة الحكمة بالمعنى النظري تنجم عن جماليات التأمل والتعمق في التفكير بالنسبة إلى الوجود والكون بأسره، وبالنسبة إلى جماليات الأنساق الرياضية ودقتها، وعمق التفكير

وجلاله بالنسبة لما بعد الطبيعة التي تضيئها ضياء أشرف الموجودات وأعظمها وهو الوجود الإلهي. أما محبة الحكمة العملية أو فلسفتها فهي تتعلق بميادين السياسة والأخلاق والاقتصاد، فالحكمة السياسية تقودنا إلى التوجه نحو سياسة الدولة توجيهاً سليماً وعلى نحو يُتيح لنا تحقيق الأهداف المرجوة منها وتلبية أمانيها وآمالها، نشداناً لازدهارها وسعادة أفرادها. وغياب الحكمة بالمفهوم السياسي يؤدي إلى تدهور الدولة وانهيار أركانها وشقاء أفرادها حتى لو كانت الدولة في الأساس قوية الاقتصاد متينة البنيان. **(على عبد المعطي محمد، 2000، ص21)**

من جهة أخرى، نجد أن الأنثروبولوجيا ولدت مرتين، مرة على صورة فلسفة، وأخرى على صورة علم اجتماعي، فالإنسان كان منذ القدم موضوعاً فلسفياً، ولطالما كانت الماهية الإنسانية مطلباً حيوياً في كل فلسفة حقيقية جادة عبر التاريخ، وقد تبدت هذه الروح الفلسفية في مقولة سقراط الشهيرة "أيها الإنسان اعرف نفسك". وقد اتخذ هذا الهاجس الفلسفي صوراً متعددة على مدى التنوع في التيارات الفلسفية منذ القدم، ولكنه يتخذ اليوم صورة جديدة تتجلى في استبصار الحقيقة الإنسانية المتفردة المتجذرة في الجماعات التي ينتسب إليها الإنسان على اختلافها وتنوعها. وهذا يعني أن الفلسفة الإنسانية اليوم تركز اهتمامها في استكشاف العلاقة الفريدة بين الفردي والاجتماعي أي بين ذاتية الفرد وخصوصيته وبين الطابع الاجتماعي للوسط الذي يعيش فيه أي بين

الخصوصية والغيرية بين الأنا والآخر في أفضل تعبير. **(علي أسعد وطفة، 2011، ص102)**

هذا وتعد الأنثروبولوجيا الفلسفية منهجية رئيسية في البحث عن الذات، ونحن نقصد بالأنثروبولوجيا تلك الفلسفة التي تتأسس على مجموعة من الحالات المعرفية النفسية، كالحدس، والمواقف الانفعالية كالحب، والرغبة، والإرادة، وظلت فلسفة الذات ذات نزعة إنسانية انطلاقاً من هذا التصور، "فالنزعة الإنسانية هي كل نظرية أو فلسفة تتخذ من الإنسان محوراً لتفكيرها وغاياتها وقيمتها العليا... **(عبد الوهاب مطاري، 2014، ص99)**

ويمكن في هذا السياق التمييز بين الأنثروبولوجيا الفلسفية وبين الأنثروبولوجيا العلمية؛ فالأنثروبولوجيا الفلسفية تركز على دراسة الأصول النظرية والفكرية، كما توظف طاقتها النقدية والمفاهيم في تناول مختلف القضايا والمسائل الأنثروبولوجية؛ وعلى خلاف ذلك فإن الأنثروبولوجيا العلمية تأخذ طابعاً أمبريقياً وميدانياً حيث تعمل على تحليل الظواهر الاجتماعية بصورة ميدانية ومنهجية، واستطاعت هذه الأنثروبولوجيا العلمية أن ترتفع إلى مستوى العالمية بفضل الأبحاث والدراسات المكثفة وبفضل المنهجيات المتقدمة والمستجدة التي توظفها في تناول قضاياها ومسائلها الحيوية. **(علي أسعد وطفة، 2011، ص102)**

ثانياً: الأنثروبولوجيا وعلم النفس.

عُرف علم النفس بعدة تعريفات يمكن ذكرها على النحو التالي:

- "أنه العلم الذي يتناول بالبحث أوجه نشاط الفرد، وهو بذلك علم وسط بين علم الفيزيولوجي الذي يدرس وظائف أعضاء البدن وبين علم الاجتماع الذي يدرس الجماعات والشعوب" وهو التعريف الذي قدمه "**ودورت**".

- "إنه ذلك النوع من العلم الذي يدرس ما يقوم به الأفراد من استجابات إزاء بيئاتهم" وهو التعريف الذي قدمه "**جاردنرميرفي**".

- "إنه العلم الذي يبحث في الطبيعة الإنسانية أو النشاط الإنساني بصفة عامة".

- "أنه العلم الذي يقوم بدراسة سلوك الكائن العضوي في بيئته". **(علاء الدين كفافي، 2009، ص22)**. وبالتالي يمكن أن نستنتج، أن علم النفس هو العلم الذي يدرس سلوك الفرد في إطار تفاعله مع بيئته المحيطة به، وهو علم يركز على الفرد. والسلوك الإنساني يعتبر موضوعاً أساسيا لعلم النفس.

إن منطلق الموضوعات البحثية لدى علماء النفس هو الاهتمام بدراسة الفرد بالدرجة الأولى، على أساس أنه وحدة قائمة ومستقلة بذاتها، ومن الاسهامات التي تشكل منطلق الإشكاليات البحثية لديهم نجد الذكاء، الإدراك، الاتجاهات، الشخصية، مختلف الأمراض، وبالمقابل

كانت الأنثروبولوجيا تهتم بأشكال السلوك الجماعي أو الجمعي. **(مختار رحاب، 2022، ص53)**

تماشياً مع ما سبق، نجد أن البحث في استعمال المعطيات الأنثروبولوجية في مجال التحليل النفسي قد بدأ مع "**فرويد**" بين عام (1912 و1913)، إذ أكد على أن الميول أثبتت أن الثقافة (ثقافة المجتمع) لها دور في تهذيب هذه الغرائز وضبطها، وقد أعطى مثالاً على ذلك "الأب المتسلط" الذي قتله أبناؤه وأكلوا لحمه (طبعاً كان ذلك في المجتمعات البدائية)، وأصبح ذلك طبيعياً في هذه المجتمعات، وبالخصوص في المجتمعات الطوطمية، وفيما بعد أصبح أصلاً لما يسمى الطابو. **(مصطفى تيلوين، 2017، ص53-54)**

ويضيف "**فريد**" كذلك قائلاً:" إن المجتمع هو كائن اجتماعي يجب أن نعامله ككائن فردي". ومعنى ذلك: أنه بالرغم من أن المجتمع عبارة عن تجمعات بشرية إلا أنه في حقيقة الأمر هو مجموعة من الأفراد يتميزون ويختلفون فيما بينهم في الطباع، والسلوك، طريقة التفكير وحتى الأذواق، وهذا يعني أن الأنثروبولوجيا تهتم بدراسة ماضي وتاريخ قيم التجمعات البشرية وربطها بالظواهر النفسية. **(مصطفى تيلوين، 2017، ص55)**

وإذا كانت الأنثروبولوجيا، توصف بأنها العلم الذي يدرس الإنسان، من حيث تطوره وسلوكياته وأنماط حياته، فإن علم النفس يشارك الأنثروبولوجيا في دراسة سلوك الإنسان. ولكن الخلاف بينهما هو أن علم

النفس يركز على سلوك الإنسان/ الفرد، أما الأنثروبولوجيا فتركز على السلوك الإنساني بشكل عام. كما تدرس السلوك الجماعي النابع من تراث الجماعة. **(عيسى الشماس، 2004، ص40)**

ثالثاً: الأنثروبولوجيا والتاريخ.

يرى "**سيد قطب**" أن "التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن امتداد الكائن في الزمان والمكان". **(محمد بن صامل السلمي، 2009، ص8)**

أما فيما يتعلق "...بالأناسة التاريخية فهي ليست علماً مختصاً جزئياً بل هي تتكون من خلال علاقتها بالكثير من العلوم وبالفلسفة. وهي لا تقدم لنا مجال بحث منغلقاً بل هي تتكون بفضل علاقتها بعلوم كثيرة لا تقبل التعيين من بداية البحث. فبعد كل مسائل بحث وموضوعات يمكن أن تختلف هذه العلاقات شديد الاختلاف. ويمكن لمجال الثقافة الإنسانية كله أن يكون موضوع الأناسة التاريخية وغرض بحثها وذلك في عهود وثقافات تاريخية مختلفة، إن بحوث الأناسة التاريخية تنطلق من تعدد الثقافات وتسلم بأن الثقافات لا تمثل انساقاً منغلقة بل هي ذات حركية وهي متراشحة ومتداخلة فيما بينها ومنفتحة على المستقبل." **(كريستوف فولف، 2009، ص14)**

ولكن التوازي المنهجي الذي يُراد رسمه بين الاثنوغرافيا والتاريخ لمقارنتهما، هو تواز وهمي: ذلك أن الإثنوغرافي يجمع الوقائع ويُقدمها (إذا كان اثنوغرافياً جيداً) وفقاً لمقتضيات المؤرخ ذاتها، وإنما يقوم دور المؤرخ على استخدام هذه الأعمال، عندما تسمح له بذلك ملاحظات موزعة على فترة زمنية كافية؛ ويقوم دور الاثنولوجي على استخدامها، عندما تيسر له ذلك ملاحظات من الطراز نفسه، تتناول عدداً كافياً من المناطق المختلفة. في جميع الحالات، يضع الإثنوغرافي وثائق يمكن أن تفيد المؤرخ.... **(كلود ليفي ستروس، 1977، ص36)** خاصة ونحن نعلم أن موضوع علم التاريخ "هو البحث في تاريخ الإنسان عبر الزمان الماضي بعصوره المختلفة وأحواله المتجددة والمتعددة في جوانبها العلمية والسياسية والاجتماعية والحضارية وضبط زمان وقوعها وكيفيته وهو يشمل جانبين هما: نقل الحدث وروايته. وتفسيره وتعليله." **(محمد بن صامل السلمي، 2009، ص9)**

كما تبرز الأناسة الخاصية التاريخية لمسائلها ولبحوثها فكذلك تؤكد نظرية التطور على التزمن الجذري للطبيعة وللتأنس. فالزمان والتاريخ يمثلان بعدين مركزيين من أبعاد التطور. والتأنس هو عملية التطور الطويل الممتد مما "قبل الإنسان" إلى "الإنسان الأصلي" ثم إلى "الإنسان المبكر" ثم إلى "الإنسان الحديث". وفي عملية تحقق الإنسان الحديث كانت صيرورته إنساناً تكوينية للنوع متعددة الأبعاد تحققت

بفضل عوامل بيئية ووراثية ودماغية واجتماعية وثقافية. **(كريستوف فولف، 2009، ص16)**

رابعاً: الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع.

قبل الولوج لطبيعة العلاقة التي تجمع بين علم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع كان من الضروري التطرق لمعنى المجتمع ثم علم الاجتماع، بداية "يقصد بالمجتمع مجموع شبكة العلاقات الاجتماعية التي تنتج عن سلوك الأفراد والجماعات وعلاقتهم ببعض، والمجتمع في حد ذاته يقوم وينشأ من خلال الرغبة المشتركة للأفراد والجماعات للعيش معاً في حالة من التعاون من أجل الاستمرار والوجود." **(عبد الله محمد عبد الرحمن، السيد رشاد غنيم، 2008، ص55)**

وعلم الاجتماع هو العلم الذي يدرس الظواهر والحوادث الاجتماعية أو المجتمعية دراسة موضوعية تحليلية، الهدف منها استخلاص القوانين التي تخضع لها الظواهر والحوادث. **(نبيل عبد الحميد عبد الجبار، 2009، ص6)**

إن العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع متقاربة في المجالات البحثية فهناك بعض الجوانب في المجال البحثي يلتقي فيها العلمان، وهما متقاربان مما يؤدي كذلك إلى التقارب في بعض النتائج المتوصل إليها والنظريات المنبثقة عن الأبحاث و الدراسات المنجزة.

وفي هذا الصدد تذكر الأنثروبولوجية "**لوسي مير**" في كتابها :"الأنثروبولوجيا الاجتماعية" وهو كتاب مترجم إلى اللغة العربية، أن أقرب فروع العلوم الاجتماعية صلة بالأنثروبولوجيا الاجتماعية هو علم الاجتماع، وكان العالم الأنثروبولوجي "راد كليف براون" في ثنايا خطابه الذي ألقاه بصفته رئيسا للمعهد الأنثروبولوجي الملكي ببريطانيا أنه ميال لتسمية الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعلم الاجتماع المقارن لمن شاء ذلك. **(مختار رحاب، 2022، ص52-53)**

والعلاقة بين علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا علاقة تبادلية فيعمد الباحث السوسيولوجي في الكثير من الأوقات إلى الاستعانة بالمواد و المعلومات الانتوغرافية الحقلية التي قام بجمعها الباحث الأنثروبولوجي، و ذلك من اجل إثراء و بناء النظرية الاجتماعية كما يأخذ الانتربولوجي و يستعين بالفرضيات و الفروض التي يسوغها بحث الاجتماعي، و يعمل على إثباتها أو نفيها أثناء أجراء الدراسات و الأبحاث الحقلية الميدانية و بالتالي يقوم ..... بالمساهمة في نمو البناء النظري . **(مختار رحاب، 2022، ص53)**

و بالمقابل إذا تفحصنا العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، فنجد هناك فروقات بين العلمين نذكر منها: المجالات الاجتماعية التي يتعامل معها علم الاجتماع محدودة، عكس الأنثروبولوجيا، يختص علم الاجتماع بدراسة الظواهر الاجتماعية في الحياة المعاصرة، عكس الأنثروبولوجيا التي تدرس الظواهر الإنسانية في مجتمعات وأزمان مختلفة

(بدائية، معاصرة)، (ماضية، حاضرة) يقوم علم الاجتماع بالتركيز على دراسة نسق من أنساق المجتمع، وتدرس الأنساق كلها على حده و دراسة مشكلات قائمة بذاتها منفصلة عن النسق العام، بينما تدرس الأنثروبولوجيا المجتمع ككل متكامل، اختلاف علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في استخدام الأدوات البحثية. **(مختار رحاب، 2022، ص53)**

خلاصة.

استخلاصاً لما تم عرضه، حول علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية، تتجسد لدينا فكرة أساسية هي أن هذه العلوم تشترك في موضوع دراسة الإنسان، وتتساند معرفياً في التوجه نحو هدف محوري يُعنى بفهم الطبيعة البشرية وخصائص الإنسانية ضمن إطار العلاقات الاجتماعية، وهذه العلوم تتجاذب نحو هذا الهدف وتتمايز في طرق ومناهج الوصول إلى هذه الغاية. فقد تنطلق من نفس الهدف وتختلف في طريقة الوصول إليه. ويبقى جوهر اهتمامها هو الإنسان وكل ما يتعلق به.

03- / المحاضرة الثالثة: تاريخ الأنثروبولوجيا:

تمهيد

لقد عرفت الأنثروبولوجيا مراحل تطورية قبل ظهورها بالشكل الحالي، فقبل أن تصبح علماً قائماً بذاته ومستقل (أي علم له موضوعه الخاص ومناهجه المميزة له، ونظرياته التي توجهه)، مرت بمراحل متسلسلة وانتقلت من مرحلة التفكير الفلسفي عبر مختلف الحضارات وصولاً إلى ما هي عليه اليوم ولا زالت الأنثروبولوجيا تُطور من ذاتها لتواكب مواضيعها مختلف التغيرات الراهنة. وجاءت هذه المحاضرة لتوضيح التطبيقات الأنثروبولوجية قبل نشأة الأنثروبولوجيا، فنشأتها.

أولاً: التطبيقات الأنثروبولوجية قبل نشأة الأنثروبولوجيا.

- الحضارات المائية. (الحضارة المصرية)

تقع مصر في الجانب الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وإن أبرز ما يميز مصر في جغرافيتها وتأريخها نهرها العظيم "**النيل**" مصدر الحياة والخصب بحيث يصح القول مع "**هيرودوتس**" المأثور "**إن مصر هبة النيل**"، إذ لولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء، فهي قطر عديم المطر بوجه أساسي، فيكون النيل وما على جانبيه من الأراضي الضيقة بلاد مصر التي يمكن فيها الحياة والعيش وهي شقة خضراء ضيقة يكون فيها الحد الفاصل بين الحياة والزرع وبين الصحراء وعدم الحياة حدا واضحاً وبونا صارخاً بين "المزروع" والصحراء. وقد عمل ضيق هذه شقة الخضراء

على تكاثف قرى الفلاحين، وجعل القرية تكون لصق القرية اقتصاداً بالأراضي القابلة للزراعة. **(طه باقر، 2011، ص14)**

تمتد بداية القصة عن حضارة وادي النيل إلى فجر الحياة البشرية في هذه الكرة الأرضية، حيث بدأ استيطان الإنسان الأول في "**وادي النيل**" منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ، أي العصور الحجرية القديمة. فبعد تكوين نهر النيل في الدهور الجيولوجية البعيدة واتخاذه شكله الحالي في العهد الجيولوجي المسمى "**بليوسين**" Pliocene كانت الأحوال المناخية تختلف تمام الاختلاف عما هي عليه الآن، فقد كانت أفريقيا ومعظم أجزاء الشرق الأدنى القاحلة الآن تتمتع بأمطار كثيرة غزيرة وكانت العصور الممطرة (Pluvial Period) تحل إبان العصور الجليدية في أوربا، أما في الفترات الجليدية فكانت تحدث أزمان جفاف. وكانت حياة الحيوان والنبات مزدهرة في شمالي أفريقيا وفي منطقة الصحاري وقد وجدت آثار الإنسان الصياد هنا، وكثيراً ما كان الصيادون يترددون على النجاد المرتفعة في وادي النيل وقد وجدت آثارهم في شرفات نهر النيل... **(طه باقر، 2011، ص26-27)**

وكان المصريون أيضاً العناصر الأولى من الجنس البشري التي أقامت الأعياد والمواكب، والخدمات الدينية، وقد نقلها **الهلينيون** جميعاً. واستنبط هذا من أن هذه الاحتفالات في مصر تبدو أنها اتبعت منذ تاريخ

بعيد، بينما كانت في **هيلاس** بدعة جديدة. **(أرنولد توينبى، 1966، ص193)**

ويمكن الإشارة إلى أنه، توجد في مصر سبع طوائف وهي تسمى على التوالي، الكهنة، المحاربون، رعاة البقر، رعاة الخنازير، التجار، والأدلاء، وكبار البحارة، وعدد هذه الطوائف سبع وأسماؤها حسب حرفها. **(أرنولد توينبى، 1966، ص194-195)**

هذا ويجمع معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، على أن الرحلة التي قام بها المصريون القدماء في عام 1493 قبل الميلاد إلى بلاد **بونت** (الصومال حاليا) بهدف **التبادل التجاري**، تعد من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين الشعوب. وقد كانت الرحلة مؤلفة من خمسة مراكب، على متن كل منها 31 راكباً، وذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شملت البخور والعطور. ونتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام أفريقيا. وتأكيداً لإقامة علاقات معهم فيما بعد، فقد **صورت النقوش في معبد الدير البحري**، استقبال ملك وملكة بلاد بونت لمبعوث مصري. **(عيسى الشماس، 2004، ص19)**

- اليونان والرومان.

بفضل البحث الذي قام به أنثروبولوجيون ومؤرخون وعلماء آثار، نؤمن الآن بأن "**اليونانيين القدماء**" ربما وبلا تحيز اختلفوا بشكل جذري

عنا. ففيما يسمى بالدول - المدينة الكلاسيكية- كان أكثر من نصف السكان عبيداً، فالمواطنون الأحرار كانوا يعتبرون الكدح اليدوي محقراً للشأن، والديمقراطية (التي ابتكرها اليونانيون أيضاً) ربما كانت أكثر شبهاً بأعياد **البوتلاتش** الخاصة **بقبائل "كواكيوتل"** Kwakiutl منها إلى الأنظمة التي وصفت في الدساتير الحديثة. **(توماس هيلاند إريكسن، فين سيفرت نيلسن، 2014، ص14)**

عاش **"هيرودوت"** ابن مدينة **"هاليكارناسوس"** (حوالي 484-425 قبل الميلاد). مولوداً في مدينة استعمارية على الساحل الجنوبي الغربي لما يعرف الآن بتركيا، اكتسب **"هيرودوت"** معرفة وثيقة بالعديد من الشعوب الأجنبية التي حافظ اليونانيون على الاتصال بها. واليوم تخلد ذكرى **"هيرودوت"** في الأساس نظراً لتاريخه عن الحروب الفارسية، لكنه **كتب بدوره قصص رحلات مفصلة عن أجزاء متفرقة من آسيا الغربية ومصر**، ومن أماكن بعيدة للغاية بعد أرض **السيكيثيين** على الساحل الشمالي من البحر الأسود. **(توماس هيلاند إريكسن، فين سيفرت نيلسن، 2014، ص15)**

ففي كتابه "التواريخ" The Histories حرص **"هيرودوتس"** على تقديم كل ما يستحق التسجيل عن التاريخ الإنساني حتى زمانه، فقد قدم معلومات في تسعة فصول، عن حوالي خمسين شعباً من خلال رحلاته

وقراءاته، إلى جانب وصفه الدقيق للحرب التي دارت بين الفرس والاغريق إبان القرن السادس قبل الميلاد، وقد جاء وصفه لمصر أيضاً دقيقاً وشيقاً، وهو صاحب العبارة الشهيرة القائلة بأن "مصر هبة النيل". **(حسين فهيم، 1986، ص41)**

يبدأ "**هيرودتس**" فصله عن مصر بقوله: "والآن سأبدأ الكلام عن مصر في اسهاب، لأنها - دون غيرها من بلاد العالم أجمع- تحوي عجائب أكثر، وآثار تجل عن الوصف. ومن أجل ذلك سأطيل الحديث عنها، نظراً لأن مناخ مصر منقطع النظير. ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقي الأنهار. لذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم." **(حسين فهيم، 1986، ص42)**

وعليه، يعد المؤرخ الإغريقي (اليوناني) **"هيرودوتس"**، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان رحالة محباً للأسفار، أول من صور أحلام الشعوب وعاداتهم وطرح فكرة وجود تنوع وفوارق فيما بينها، من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية. ولذلك، يعتبره معظم مؤرخي الأنثروبولوجيا الباحث الأنثروبولوجيا الأول في التاريخ. **(عيسى الشماس، 2004، ص19)**

ومما يقوله في عادات المصريين: "إنه في غير المصريين، يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أما في مصر فيحلقونها. ويقضي العرف عند سائر

الشعوب، بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم في أثناء الحداد، ولكن المصريين إذ نزلت بساحتهم محنة الموت، فإنهم يطلقون شعر الرأس واللحية". **(عيسى الشماس، 2004، ص19-20)**

أما "**أرسطو**" (284-322 قبل الميلاد) فقد انغمس بدوره في التأملات الفلسفية عن طبيعة الجنس البشري. وفي الأنثروبولوجيا الفلسفية الخاصة به يناقش الاختلافات بين البشر والحيوانات على وجه العموم، ويستنتج أنه رغم وجود حاجات مشتركة بينهم وبين الحيوانات، فالإنسان وحده هو الذي يحظى بالعقل والحكمة والأخلاق. لقد دفع أيضاً بأن البشر في الأساس اجتماعيون بطبيعتهم. في الأنثروبولوجيا وعلوم أخرى يقوم مثل هذا النمط الشمولي من الفكر والذي يبحث عن ترسيخ التشابهات وليس الاختلافات بين جماعات الناس... **(توماس هيلاند إريكسن، فين سيفرت نيلسن، 2014، ص15-16)**

- عند الرومان:

امتد عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل وأفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية وطبيعتها، وتفسير التباين والاختلاف فيما بينها... ولكنهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية المجردة للحياة الإنسانية، بل وجَّهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس. ومع ذلك، لا يجد الأنثروبولوجيون في

الفكر الروماني ما يمكن اعتباره كإسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب وثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات. **(عيسى الشماس، 2004، ص21)**

ومن بين ما يمكن أن نستثنيه من الرأي المذكور أعلاه، ما قدمه "**تاسيتوس**" الروماني الذي قدم صفحات اثنوغرافية حول ثقافة بدائية من خلال كتابه المسمى "جرمانيا" 98م، حيث تكلم بالتفصيل عن أخلاق وعادات القبائل الجرمانية، كما تطرق للعوامل الأيكولوجية والبيئية للجغرافيا التي يسكنونها، كما يذكر بعض ممن كتبوا حول تاريخ نشأة علم الأنثروبولوجيا. **(مختار رحاب، 2022، ص64)**

وقد رأى بعض الأنثربولوجين، أن "**لوكرتيوس**" استطاع أن يتصور مسار البشرية في عصور حجرية ثم برونزية، ثم حديدية... بينما رأي بعضهم الآخر في فكر "**لوكرتيوس**" تطابقاً مع فكر "لويس مورغان" (1818-1881) أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر. وذلك من حيث رؤية التقدم والانتقال من مرحلة إلى أخرى، في إطار حدوث طفرات مادية، وإن كان مردها في النهاية إلى عمليات وابتكارات عقلية. **(عيسى الشماس، 2004، ص21)**

وإذا استثنينا أشعار "**لوكرتيوس**" هذه وما احتوتها من أفكار تتعلق بطبيعة الكون ونشأة الإنسان وتطوره، فإنه من الصعوبة بمكان أن

تنسب نشأة علم الأنثروبولوجيا إلى الفكر الروماني القديم، كما هي الحال عند الإغريقيين. **(عيسى الشماس، 2004، ص21)**

- العصور الوسطى:

أ- عند الأوربيين:

يُجمع معظم المؤرخين أن هذه العصور، تمتد من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وقد أصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأوربية وارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، ولأنها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأوربية القديمة (اليونانية والرومانية) وبداية عصر النهضة الأوربية (عصر التنوير) والانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، وإحياء التراث الفكري القديم، وإبداعات في الفنون والآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، وتتسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة. **(عيسى الشماس، 2004، ص23)**

لقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب، إلا أنها اتسمت –غالباً- بالوصف التخلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع، ومثال ذلك ما قام به الأسقف "**إسيدور Isidore**" الذي عاش ما بين (560-636) حيث أعد في القرن السابع الميلادي موسوعة عن المعرفة، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب

المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية، تتسم بالسطحية والتحيز. **(عيسى الشماس، 2004، ص23)**

ومما ذكره، أن قرب الشعوب من أوربا أو بعدها عنها، يحدد درجة تقدمها، فكلما كانت المسافة بعيدة، كان الانحطاط والتهور الحضاري مؤكدا لتلك الشعوب، ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية بأنهم من سلالات غريبة الخلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنف.

وقد ظلت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدها الفرنسي "**باتولو ما كوس**" Batholo Macus، والتي حظيت بشعبية كبيرة، على الرغم من أنها لم تختلف كثيراً عن سابقتها في الاعتماد على الخيال. **(عيسى الشماس، 2004، ص24)**

ب- عند العرب (الحضارة العربية الإسلامية)

... يذكر المؤرخون أن عظمة الحضارة الإسلامية وأهميتها لا ترجع إلى أنها أتت فقط بدين جديد آمن به الملايين من الناس في أماكن متعددة ومتفرقة، وإنما فيما أحدثته أيضاً من تغيرات اجتماعية وسياسية كبيرة نتج عنها اثراء فكري وتراث حضاري لم يسبق لهما مثيل. وقد تضمنت الحضارة الإسلامية. الآداب والأخلاق، والفلسفة والمنطق، كما كانت ذات تأثير خاص في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية. **(حسين فهيم، 1986، ص53)**

ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، **كمعجم (البلدان) "لياقوت الحموي"**، وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل "**مسالك الأمصار**" **لابن فضل الله العمري**"، و "**نهاية الأرب في فنون العرب**" "**للنويري**".**(عيسى الشماس، 2004، ص24)**

وعلى سبيل الإيضاح نشير هنا إلى كتاب **"البيروني"** عن الهند، لما حظي به من شهرة كبيرة في الدوائر العلمية الأوربية، ولما احتواه من مادة اثنوجرافية هامة. ففي هذا الكتاب، الذي حمل عنوان "**تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**"، وصف البيروني المجتمع الهندي من ناحية نظمه الدينية والاجتماعية، وأنماط الثقافة، كما اهتم أيضاً بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس. وقد أبرز البيروني حقيقة أن الدين يلعب الدور الرئيس في تشكيل الحياة الهندية وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وصياغة القيم والمعتقدات. **(حسين فهيم، 1986، ص54)**

كما كانت لرحلات "**ابن بطوطة**" وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، وبرزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكياتهم وقيمهم وتقاليدهم. فمما كتبه في استحسان أفعال السودان: "فمن أفعالهم قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم،

فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاضب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض والأجانب) ولو كان القناطير المقنطرة. وإنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقه. **(عيسى الشماس، 2004، ص25)**

ومن النماذج العلمية المضيئة في تاريخ الفكر الاجتماعي في العصور الوسطى لدى العرب المسلمين، والتي شكلت قاعدة علمية هامة في التأسيس لعلم جديد سمي بعلم العمران البشري، وأطلق عليه تسمية علم الاجتماع لدى الأوربيين فيما بعد، نجد مجهودات العلامة "**عبد الرحمن ابن خلدون**" والتي من أشهرها كتاب :"**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" و "مقدمته" والتي وصف فيها أحوال العمران وما يعترضه من العوارض الذاتية حول الملك والسلطان بالإضافة إلى عمليات ومناشط الكسب والمعاش والصنائع والعلوم و علل ذلك وأسبابها.

وكانت من جملة ما اشتملته تسجيل أحوال الحياة الاجتماعية لسكان شمال إفريقيا وما يتشكل من خلالها من علاقات و ما يتخللها من عادات وتقاليد، كما كانت له تنظيرات تفسيرية لما لاحظه وعايشه من مظاهر ومواقف وظواهر اجتماعية، وما شارك وساهم في أحداثه في الجانب السياسي سيما وأنه تمكن من الدخول لقصور السلاطين وتقلده لبعض المهام. **(مختار رحاب، 2022، ص87-88)**

ومما سبق عرضه، نصل للقول أن الرحالة العرب والمسلمين ساهموا بشكل كبير في الكثير من الأعمال الإثنوغرافية من خلال مؤلفاتهم والموسوعات التي أصدروها عن مختلف الشعوب التي زاروها ووصفهم الدقيق لأساليب حياة الثقافات المختلفة.

- أوربا في عصر النهضة والأنوار.

يتفق المؤرخون على أن عصر النهضة في أوربا، بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوروبيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية، وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر. **(عيسى الشماس، 2004، ص26-27)**

وفي نهاية القرن الخامس عشر نشطت حركة البحارة والمغامرون خصوصا منهم البرتغاليون والإسبان الذين اتجهوا صوب العالم الجديد، وحتى وان اختلفت دوافعهم بين المغامرة والبحث عن الثروة، أو التبشير بالديانة المسيحية، أو بدافع الاكتشاف، ولكن في الأخير حصل نوع من التراكم الإخباري والوصفي حول شعوب العالم الجديد أو كما يسمون بالهنود الحمر بأمريكا والشعوب الساكنة للجزر بالبحار الجنوبية، وسكان غرينلاندا والتي أخبر عنهم الرحالة والمكتشفون أنهم يعيشون في طعامهم على اصطياد الرنة والفقمة، هذا بالإضافة إلى المعلومات والأوصاف التي تم تدوينها حول الهند، وجنوب شرق آسيا، والشعوب الافريقية جنوب الصحراء. **(مختار رحاب، 2022، ص95)**

كانت الاكتشافات العظيمة من الأهمية الحاسمة بمكان بالنسبة للتطورات اللاحقة في أوروبا والعالم، وبدرجة أقل بالنسبة لتطور الأنثروبولوجيا. فبدأ اكتشاف البحارة "**هنري**" للساحل الغربي لأفريقيا في باكورة القرن الخامس عشر، مروراً برحلات "**كولومبس**" الخمس إلى أمريكا (1492-1506)، وحتى طواف "**مجلان**" حول العالم (1519-1522)، راحت أسفار هذه الفترة تُغذي خيالات الأوربيين بأوصاف حيوية لأماكن لم يكونوا مدركين لوجودها حتى يومها. على أن كتب الرحلات المصورة وصلت على غير العادة إلى جمهور كبير، نظراً لأن الصحافة المطبوعة التي اخترعت سنة 1448 جعلت الكتب سلعة عامة ورخيصة نسبياً في جميع أنحاء أوربا. **(توماس هيلاند إريكسن، فين سيفرت نيلسن، 2014، ص19)**

ومن أبرز المؤثرات التي تركتها رحلات "**كولومبوس**" إلى العالم الجديد هو ولادة نظرة جديدة حول الإنسان داخل القارة الأوربية، وخارجها بأكثر تحديد، وهو ما كان له انعكاس ايجابي على الفكر الأنثروبولوجي، فكان من أبرز ما قدمته وأكدته هو تنوع الجنس البشري من خلال تقديم حقائق وأدلة موضوعية نابعة من أدوات بحثية منطقية في مقدمتها الملاحظة المباشرة والمعايشة، كما حركت الأجهزة التخمينية والأوعية الفكرية والعلمية من طرائق التفكير المعتادة، إلى طرح مسائل تفكيرية اتجهت من خلالها الاهتمامات البحثية إلى التأمل والتفكير في

قضايا النشأة والتطور لدى الكائنات خصوصا منها البشر. **(مختار رحاب، 2022، ص98)**

- القرن التاسع عشر والتوسع الاستعماري.

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، أصبح حقل العلوم الذي كان يُعرف تارة "بالتاريخ الطبيعي للإنسان" وتارة أخرى ب "الأنثروبولوجيا"، متخصصاً في دراسة معينة هي "تغيرات الجنس البشري". وفي الوقت عينه الذي تم فيه تعريف مادة ذلك العلم الذي لم يعد تأملاً أو تفكراً، بل بحثاً وتنقيباً، أي تعرفا وضعياً وموضوعياً بالإنسان بأبعاده الثلاثة: الجسدي والفكري والأخلاقي، وضُعت قواعد خاصة بالمشاهدة واقترحت نماذج خاصة بالتحليل أخذت الأنثروبولوجيا، ذات الطبيعة النظرية والتركيبية، تهدف إلى فرض نفسها كعلم تجريبي ومقارن، باحثة عن "ميادين" الأبحاث والأشكال المؤسساتية للوجود والمعرفة، وعن منهجية موحدة وإطار مفهومي للتفكر. **(بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، 2011، ص100)**

يذكر عالم الأنثروبولوجيا البريطاني ايفانز بريتشارد قائلا:" أننا نستطيع أن نجد في التفكير النظري الذي كان سائدا في القرن الثامن عشر كل عناصر ومكونات النظرية الأنثروبولوجية في **القرن التاسع عشر**، وبل في القرن العشرين أيضا نجد الاهتمام الشديد بالنظم الاجتماعية، واعتبار المجتمعات البشرية انساقا طبيعية يجب أن تدرس دراسة تجريبية استقرائية، يكون الغرض منها كشف المبادئ

الكلية أو القوانين، ثم صياغتها بالخصوص على شكل مراحل التطور التي يمكن الوصول إليها باستخدام منهج المقارنة، الذي يعتمد على التاريخ الظني اعتمادا كبيرا، ولكن الغرض النهائي أو الأخير من الدراسة يجب أن يكون تحديد الأخلاق بطريقة علمية خالصة." (**رحاب مختار، 2022، ص107–108**)

ثانياً: نشأة الأنثروبولوجيا.

شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا وتطويرها، لتصبح كياناً أكاديمياً ومهنة متخصصة عند كثير من العلماء والفلاسفة والباحثين. فعلى الرغم من أن الفكر الأنثروبولوجي قد ظل خلال العقدين الأوليين من القرن العشرين، متأثراً إلى حد بعيد بالنظريات التي سادت وتبلورت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، فإنه سرعان ما تغير وتحول إلى منطلقات جديدة، نتج عنها اتجاهات متعددة إزاء دراسة الإنسان وحضارته، سواء ما كان منها نظرياً أو منهجياً. **(حسين فهيم، 1986، ص149)**

وكان للدين أيضاً تأثيراته في تشكيل الفكر الأنثروبولوجي في العقود الأولى من القرن العشرين، ولا سيما على النظم الاجتماعية، إلا أن ذلك التأثير تضاءل أمام تعاظم التيارات التحررية وما رافقها من انجازات علمية هائلة، الأمر الذي حدا بالكنيسة في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، إلى تقبل فكرة الحوار وحرية المناقشة في الأمور الدينية

والدنيوية... بعيداً عن الأساليب القمعية التقليدية. **(عيسى الشماس، 2004، ص47-48)**

وهكذا، شكل هذا العلم دعامة أساسية في ثقافة القرن العشرين عامة، وفي الفكر الأنثروبولوجي خاصة، حيث كان وثيق الصلة بالفكر الاجتماعي والقضايا الإنسانية التي أسهمت في تحديد موضوعات الدراسات الأنثروبولوجية، ومناهجها وأهدافها. **(عيسى الشماس، 2004، ص48)**

خلاصة

نستنتج مما سبق، أن الأنثروبولوجيا تعتبر حقلاً علمياً حديث النشأة نسبياً من حيث اعتباره علماً أكاديمياً، غير ان امتداده الفكري (كتفكير أنثروبولوجي) قديم فهو يرجع إلى حضارات عريقة وانطلقت من توجه فلسفي وتأملي وانتهت بالوصول إلى علم ميداني وتجريبي يقوم على دراسات حقلية ميدانية ومنهج اثنوغرافي أكثر علمية بعيد عن التأمل والتخمين.

4/ المحاضرة الرابعة: فروع الأنثروبولوجيا وأقسامها.

تمهيد

تمثل الأنثروبولوجيا العامة حقل علمي واسع المجالات ومتنوع من حيث أقسامه، فالأنثروبولوجيا تضم فروع أساسية نقتصر ضمن هذه المحاضرة على ذكر أهمها، بدءاً بالأنثروبولوجيا العضوية، والاجتماعية فالثقافية والنفسية...إلخ. والصفحات الموالية توضح ذلك.

أولاً: الأنثروبولوجيا العضوية.

هي دراسة الجانب الطبيعي والفيزيقي في الإنسان، ودراسة جسمه وتطوره واختلافاته البيولوجية، وهذا الفرع من علم الإنسان يهتم بتوضيح أوجه التشابه والاختلاف والتباين واتجاهات التغير في الأفراد والجماعات في الماضي والحاضر. **(فاروق أحمد مصطفى، 2013، ص15)**

ويرجع الاختلاف والتباين إلى الاختلافات الوراثية وإلى تأثير عوامل البيئة الكامنة في الوراثة. يهتم الأنثربولوجيين الفيزيقيين بالقيام بالبحوث والدراسات التي تلقي الضوء على كثير من المفهومات التي لم تكن معروفة من قبل والتي تميز مجالات عديدة داخل هذا الفرع الهام من دراسات علم الإنسان، ومن أهم هذه المجالات نذكر ما يلي:

- **علم العظام وعلم الأسنان Osteology & Dentistology**:

تعد دراسة العظام والأسنان من أهم اهتمامات الأنثروبولوجيا الفيزيقية نظراً لأنها الأجزاء الرئيسية بالنسبة للحفريات، كما أنها تحكي قصة التطور: فالجمجمة توضح شكل الفرد وحجم المخ، أما الهيكل العظمي فيحدد الشكل العام للجسم الإنساني، حجمه، وترتبط أجزاء الجسم بالعضلات التي تساعد على أداء الحركة ونستطيع عن طريق دراستنا للهيكل العظمي أن نعرف وظيفة أجزاء الجسم المختلفة.

- الإيكولوجيا البشرية Humain Ecology:

تحدد الايكولوجيا البشرية وسائل تكيف الإنسان لظروف الحياة التي تختلف طبقاً للسن، والنوع، والأصول العرقية، وهذا يعني توضيح كيفية التعامل بين الإنسان والبيئة في ضوء العوامل الكثيرة مثل العوامل البيولوجية، والتشريحية والفسيولوجية، والباثولوجية...إلخ.

ويزداد أهمية التفاعل الإنساني مع البيئة نظراً للتغير الذي يحدث بسرعة نتيجة لما يقوم به الإنسان من دور فعال في تغيير ملامح كل ما يحيط به.

- علم الأجنة والنمو Embryology & Growth:

مما لا شك فيه أن هناك تغييرات كثيرة يمر بها الإنسان عبر أعماره المختلفة لها تأثيراتها المستمرة على كل الملامح البيولوجية البشرية، ودراسة

النمو لا تبدأ بميلاد الطفل وإنما تبدأ قبل ولادته ويهتم بها علم منفصل هو علم الأجنة الذي يتابع عملية نمو الطفل والجنين داخل رحم الأم كما يتابع علم الأنثروبولوجيا الفيزيقية عمليات النمو المختلفة بعد الولادة وذلك بإجراء المقاييس الأنثروبومترية لمتابعة الأطفال في جميع الأعمار لملاحظة التغيرات التي تحدث بعد الميلاد. مثل النمو الفيزيقي في الحجم (الوزن والطول) ونمو بعض الأعضاء تحدد الملامح الخاصة بالبلوغ والقدرة على أداء بعض الأعمال وغيرها.**(فاروق أحمد مصطفى، 2013، ص16)**

- تكوين الجسم وبناؤه Body Composition&Build:

يعمل الأنثروبولوجي الفيزيقي مع المتخصصين في استخدام التحليل الإشعاعي أو عن طريق استخدام الموجات الصوتية وذلك بهدف تحديد ما بداخل الجسم الإنساني الحي من مكونات وتأثيرها في بناء الجسم وقوته أو ضعفه.

- البيولوجيا الجزئية Molecular Biology:

يسهم الأنثربولوجين الفيزيقيين في تحديد السمات الفيزيقية للبشر والمخلوقات الأخرى وتحديد أوجه الاختلاف والتشابه بين الإنسان وهذه المخلوقات باستخدام بعض التحليلات البيولوجية مثل فصائل الدم وتحديد نسبة الهيموجلوبين وغيرها.

- علم الوراثة البيوكيميائية Biochemical Genetics:

ترجع الاختلافات في قدرة الجسم أساساً إلى التركيب الجزئي لخلايا الجسم والكمية التي سينتجها من الخلايا وهذه كلها ترجع إلى مورثات بيولوجية. ويهتم هذا الفرع من علم الإنسان الفيزيقي بالسؤال عن هل الأمراض التي تظهر في بعض الشعوب سببها الاختلافات الموروثة؟ أم ترجع إلى ما تتغذى عليه هذه الشعوب من طعام؟ وقد اكتشفت الدراسات الفيزيقية في هذا الصدى أن انتشار مرض البول السكري بين بعض الشعوب لا يرجع إلى عوامل الوراثة فحسب وإنما أيضاً يرجع إلى عوامل أخرى مثل التغذية.

- التطور الخفي Micro Evolation:

يستخدم مصطلح التطور الخفي لوصف العمليات التي تؤدي إلى التباين والاختلاف بين الشعوب من نفس الأنواع خلال فترة قصيرة من الزمن. وتتدخل عمليات التباين والايكولوجيا بصورة مباشرة في تحديد أوجه التباين بين الشعوب كالانحدار السلالي واختلاف المناخ والتغذية والأمراض التي تؤدي إلى حدوث هذه الاختلافات.

- الرئيسيات Primatology :

يهتم علم الإنسان الفيزيقي بعقد المقارنات بين الإنسان وغيره من الحيوانات الثديية الشبيهة به أو الرئيسيات غير البشرية وذلك من أجل تحديد أوجه الاختلاف من الناحية التشريحية وأيضاً تحديد أوجه التباين في السلوك. وقد أثبتت الدراسات التي تمت على الرئيسيات بأن التماسك الاجتماعي داخل القردة يرجع إلى كل من السلوك العدواني والسلوك التعاوني القائم على الصداقة. **(فاروق أحمد مصطفى، 2013، ص17)**

وفي دراسة السلالات البشرية يلجأ عالم الإنسان الفيزيقي إلى دراسة أجزاء الجسم المختلفة ليعقد الموازنات والمقارنات بين التركيبات الجسمية للسلالات المختلفة، فهو يدرس الهيكل العظمي والعضلات ولون العين ولون البشرة وشكل الشعر ولونه ونوعه وتوزيعه على الجسم والأعضاء الداخلية، أي هو يقوم بدراسة مقارنة للمورفولوجيا الإنسانية والبناء الجسمي للإنسان من شتى السلالات Morphology مستخدماً في ذلك علم التشريح Anatomy المقارن. وهذه المقارنة تتم عن طريق قياس الأجزاء الجسمية المختلفة كطول الجبهة مثلاً وعرضها والقامة أو الطول العام والعرض، وهذا القياس يستعين بالعمليات الاحصائية حتى يصل إلى تقدير الأس الدماغي للسلالات المختلفة والأس الأنفي مثلا...وهذه العمليات التي تقوم على المقاييس هي المسماة باسم القياس الإنساني أو البشري Anthropometry. **(حسن شحاته سعفان، د. سنة، ص17)**

إذن فالأنثروبولوجيا الفيزيقية، هي ذلك العلم الذي يدرس الجوانب الفيزيقية للإنسان فهي تدرس تركيبه الجسماني والتطورات التي مر بها إلى أن حصل على صورته الحالية، وكذلك تنوعه بيولوجياً وهي في ذلك تهتم بدراسة التنوع واتجاهات التغير في كل من الأفراد والجماعات سواء في الماضي أم الحاضر وأسباب التباين البيولوجي بين البشر، ترجع إلى الاختلافات الوراثية وكذلك التعديلات البيئية للإمكانيات الوراثية. أما اتجاهات التغير فالمقصود به التغير الذي حدث في الماضي وأنتج اختلافات على مدى فترات طويلة من الزمن من خلال التطور ومع ذلك فعلى الرغم من قصر الزمن المطلوب لإحداث تنوعات وتغيرات جديدة في الوقت الحاضر فمازالت هناك تغيرات تحدث في شكل الإنسان وقوامه. وعلى ذلك فالأنثروبولوجيا الفيزيقية هي ذلك العلم الذي يدرس أصول وتطور الإنسان وهي احدى الفروع الهامة من الأنثروبولوجيا. وإن كانت الأنثروبولوجيا الثقافية تدرس الإنسان من حيث منتجاته ومقتنياته المادية والفكرية وإذا كانت الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس علاقاته وتنظيماته بينه وبين أقرانه في المجتمع فإن الأنثروبولوجيا الطبيعية لا تدرس الإنسان الحالي فقط كفرد وكجماعة سلالية من خلال صفاته الظاهرية والجينية بل تتعدى ذلك إلى دراسته في العصور القديمة الحجرية والتاريخية وأيضاً إلى دراسته في المستقبل في ضوء التغيرات التي

طرأت عليه من خلال متغيرات البيئات والعصور. **(هندومة محمد أنور، 2011، ص17)**

وهناك بعض العلماء الذين يفضلون استخدام مصطلح البيولوجيا البشرية للإشارة إلى الأنثروبولوجيا الفيزيقية وهي تدرس تحت هذا الاسم في بعض الجامعات وتعتبر علم من العلوم الطبية الأساسية. ولكن يجب أن نؤكد أن الأنثروبولوجيا الفيزيقية تختلف عن البيولوجيا البشرية في بعض النقاط المتعلقة بالمدخل والتأكيد على جوانب معينة. وهذ الاختلاف يوجد في عقل عالم الأنثروبولوجيا الفيزيقية. ولنضرب لذلك مثلاً. فعالم الحيوان (المهتم بدراسة البيولوجيا البشرية) عندما يدرس بعض الجماعات البشرية قد يلاحظ أن لون البشرة السمراء يتردد في مجموعة سكانية معينة بنسبة أعلى منها في مجموعة سكانية أخرى. وهو يقوم في هذه الحالة بوصف هذا الاختلاف بين المجموعتين ويحاول في نفس الوقت أن يبحث عن الميكانيزمات الوراثية التي أدت إلى هذا التباين. أما عالم الأنثروبولوجيا الفيزيقية فبالإضافة إلى هذا فهو أيضاً يحاول أن يكشف عن التقاليد والأعراف الثقافية التي ربما تمنع المجموعة السكانية ذات البشرة الداكنة من التزاوج مع المجموعة ذات اللون الفاتح. **(هندومة محمد أنور، 2011، ص18)**

ثانياً: الأنثروبولوجيا الثقافية.

الأنثروبولوجيا الثقافية أو علم الإنسان الثقافي Cultural Antropology "وهو العلم الذي يدرس السلوك الإنساني وما يترتب عليه من إنشاء نظم وعادات وتقاليد اجتماعية. ويسمى هذا العلم أحياناً باسم علم الثقافات Culturology، ولا سيما عند لزلي وايت Leslie White والثقافة هي نماذج السلوك والنظم التي ينشئها الإنسان دون غيره من الحيوانات الأخرى. **(حسن شحاته سعفان، د. سنة، ص19)**

و**الأنثروبولوجيا الثقافية** تدرس كذلك سلوك الإنسان وأعماله الناتجة عن ثقافته وتدرس كذلك أصول الثقافة الإنسانية وتاريخها وتطورها ووظائف الثقافات الإنسانية في كل زمان ومكان وعناصرها المختلفة بجانبها المادي والمعنوي، وتشمل دراسة اللغة والدين والقيم والمعايير والمعتقدات، فضلاً عن دراسة الآلات والأدوات والملبس والمأكل والمسكن والتكنولوجيا المستخدمة. **(سمير سعيد حجازي، د. سنة، ص217)**

وتتفرع الأنثروبولوجيا الثقافية إلى ثلاثة **فروع** هي: علم **اللغويات، وعلم آثار ما قبل التاريخ** وعلم **الاثنولوجيا والأثنوجرافيا. (سمير سعيد حجازي، د. سنة، ص217)**

والأنثروبولوجيا الثقافية تنهض على أساس دراسة الصيغة الكلية لسمات الثقافية والعلاقات المتبادلة بينهما، ولا تقتصر على دراسة الثقافة

في المجتمعات البدائية وإنما تهتم بدراسة الثقافة في كل زمان ومكان وفي المجتمعات على اختلاف أنواعها البدائية والتقليدية المعاصرة. **(سمير سعيد حجازي، د. سنة، ص218)**

ثالثاً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

تعرف الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها: دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات. **(عيسى الشماس، 2004، ص112)**

لذلك، فمن الضروري في دراسة الإنسان وأعماله، أن نميز بين عبارة "ثقافة" وعبارة "مجتمع" المرافقة لها. فالثقافة – كما في تعريفها- هي طريقة حياة شعب ما، أما المجتمع فهو تكتل منظم لعدد من الأفراد، يتفاعلون فيما بينهم ويتبعون طريقة حياة معينة. وبعبارة أبسط: المجتمع مؤلف من أناس، وطريقة سلوكهم هي ثقافتهم. **(عيسى الشماس، 2004، ص112)**

كان من بين التعريفات الكلاسيكية التي صيغت حول الأنثروبولوجيا الاجتماعية أنها ذلك العلم الذي يهتم بدراسة البناء الاجتماعي لأي جماعة أو مجتمع، بصورة كلية لما يتضمنه هذا البناء من علاقات وتنظيمات، وبالتركيز على دراسة هذه الموضوعات تتجسر الهوة وتقترب العلاقة بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية. **(مختار رحاب، 2022، ص37)**

في ذات السياق، إنه تحت تأثير "**راد كليف براون**" بالخصوص فإن الأنثروبولوجيا الاجتماعية حاولت أن تكون **علم اجتماع مقارناً** (sociologie comparative) وتدخل ضمن مجالاتها الإثنولوجيا وعلم الاجتماع باعتبارهما مجالين معرفيين أساسيين ولهما خصوصيات دقيقة ومعينة في دراسة المجتمع والتطورات الحاصلة فيه، أما اليوم وبالخصوص في فرنسا، فإن الأنثروبولوجيا الاجتماعية والإثنولوجيا أصبحتا مرادفين لإثنولوجيا المدينة وإثنولوجيا الريف. وهكذا رفضت هذه الأنثروبولوجيا الاجتماعية تلك الفكرة القائلة إن موضوعها يهتم بالمجتمعات البدائية فقط... **(مصطفى تيلوين، 2017، ص35-36)**

والأنثروبولوجيا الاجتماعية هي مصطلح أطلق من قبل التراث البحثي المهيمن من قبل رواد **المدرسة البريطانية** الذي يؤكدون على دراسة الجماعة، المجتمع، البناء الاجتماعي، التنظيم الاجتماعي، العلاقات

الاجتماعية، وقناعتهم بالاستقلال الذاتي للمجال الاجتماعي، وهذا التركيز إذا ما أردنا البحث في خلفيته التاريخية فيمكننا القول أنه نتيجة تأثر رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا خصوصاً البنائيين الوظيفيين منهم بالتراث السوسيولوجي لبعض علماء الاجتماع الفرنسيين وعلى رأسهم "**إميل دوركايم**" حيث استفادوا كثيراً من نظرياته حول الظواهر الاجتماعية، ونذكر منهم "**راد كليف براون**"، و "**فورتس**".**(مختار رحاب، 2022، ص37)**

وهناك من يرى أن: "الأنثروبولوجيا الاجتماعية علم حديث نسبياً، وكان السير جيمس فريزر J.Frazer هو من استخدم هذا المصطلح الجديد، وبخاصة في محاضرته الشهيرة التي ألقاها في جامعة ليفربول 1908، تحت عنوان "مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية" وفي هذه المحاضرة حدد دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها محاولة علمية للكشف عما يسميه بالقوانين العامة التي تحكم الظواهر، وتفسر ماضي المجتمعات الإنسانية حتى تتمكن بفضلها أن تتنبأ بمستقبل البشرية، استناداً إلى تلك القوانين الاجتماعية العامة التي تنظم تاريخ الإنسان حيث أن الطبيعة البشرية تتسم بأنها واحدة في كل زمان ومكان. **(مختار رحاب، 2022، ص37-38)**

فالنظام الاجتماعي إذن، هو التعبير التقني الأنثروبولوجي الذي يدل على المظهر الأساسي في حياة الجماعة الإنسانية، وهو يشمل النظم

التي تؤلف إطاراً لأنواع السلوك جميعها، سواء كان فردياً أو اجتماعياً. **(عيسى الشماس، 2004، ص113)**

وبناء على ذلك، **تهدف** دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تحديد العلاقات المتبادلة بين هذه النظم، سواء في المجتمعات القديمة التي تدرس من خلال آثارها المادية والفكرية، أو في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، التي تدرس من خلال الملاحظة المباشرة لمنجزاتها وتفاعلاتها الخاصة والعامة. **(عيسى الشماس، 2004، ص113)**

يهتم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا بتحليل البناء الاجتماعي للمجتمع خصوصاً في المراحل الأولى من بدايات الدراسات الحقلية والتركيز على المجتمعات المسماة بدائية، أين تظهر وحدة البناء الاجتماعي...مع التركيز على إبراز الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية. **(مختار رحاب، 2022، ص38)**

ويرى "**ايفانز بريتشارد**" أن الاهتمام يكون بدراسة النظم الاجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيمات السياسية والإجراءات الضبطية القانونية والعبادات الدينية، وكل السلوكات الاجتماعية المتولدة داخل هذه النظم... **(مختار رحاب، 2022، ص38)**

ويحدد "**راد كليف بروان**" **مجال الدراسة** في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنه الحياة الاجتماعية بمختلف جوانبها كوحدة وظيفية،

حيث يرى أن البناء الاجتماعي يشتمل على درجة من الوحدة الوظيفية على اعتبار أنه يتألف من أجزاء أو أنساق اجتماعية تتوافق فيما بينها بدرجة منتظمة ويكون لكل نسق منها وظيفته في هذا الكل حيث يحدد (الوظيفة) باعتبارها شرطاً ضرورياً لوجود الكل، حيث تمثل الوظيفة النشاط الاجتماعي الجزئي في النشاط الكلي الذي يحويها. كما يرى **راد كليف براون** أن كل علاقة اجتماعية تقوم بين شخص وآخر تعد جزءاً من البناء الاجتماعي بالإضافة إلى أنه ربط دور الفرد بمكانته أو مركزه الاجتماعي. **(هالة منصور، 2000، ص75-76)**

ومن هنا فالبناء الاجتماعي عند **راد كليف براون** هو شبكة العلاقات الاجتماعية الفعلية التي تقوم بين سائر الأشخاص في المجتمع، والمتمثلة في مجموعة العلاقات الواقعية التي تتغير بين الأشخاص والجماعات... **(هالة منصور، 2000، ص76)**

ويرى **براون** أن فهم البناء الاجتماعي لا يتم إلا بملاحظة العلاقات الاجتماعية التي تبرز من خلال السلوك المتبادل بين الأشخاص حيث **ينظر إلى الشخص باعتباره مجموعة من العلاقات الاجتماعية من حيث إنه ابن، وزوج، وأب، وأخ، وصديق، وذو مهنة معينة، وعضو في جماعة محددة...إلخ، أي من خلال مكانته أو مركزه الاجتماعي، فالشخص يمثل اللبنة الأولى التي يتكون منها البناء الاجتماعي** الذي

يستمر باستمرار التنظيم الاجتماعي الذي ينظم أدوار الأشخاص ويحدد علاقاتهم بعضهم ببعض. **(هالة منصور، 2000، ص76)**

ويختلف "ايفانز بريتشارد" EvansPrictchard مع **"راد كليف براون"** في بعض النقاط، حيث **يرفض بريتشارد** أن نعتبر أي علاقة ثنائية بين شخصين وحدة من وحدات البناء الاجتماعي، فهو **يرى أن البناء الاجتماعي يشتمل على الجماعات الاجتماعية الدائمة مثل: الأمم، والقبائل والعشائر، التي تحتفظ باستمرارها** وهويتها كجماعات تتميز بدرجة عالية من الثبات والاستمرار على الرغم من التغيرات التي تحدث في عضويتها والتي تشمل الأفراد المكونين لتلك الجماعات حيث ينظر إلى الجماعة من حيث هي مجموعة من العلاقات القائمة ذات طابع دائم ومستمر بينما يتغير أعضاؤها. **(هالة منصور، 2000، ص211)**

والبناء الاجتماعي في رأيه يتضمن نوعاً من التماسك والتوافق بين أجزائه بحيث تتمتع العلاقات فيه بصيرورة، لا تتوفر في العلاقات العابرة والتي تظهر في محيط في محيط العلاقات الثنائية. **(هالة منصور، 2000، ص211)**

هذا ويؤكد **ايفانز بريتشارد**، أن المحك الأساسي لتحديد الوحدة البنائية هو مدى أهمية العلاقات الاجتماعية بالنسبة للمجتمع ومدى العمق في التغيرات التي تطرأ على البناء فيما لو اختفت هذه العلاقة

الاجتماعية تماماً، هل سيظل البناء متماسكاً أم أن غياب الوحدة سيعمل على فقدان هذا التوازان. ولكن **راد كليف بروان** يرى أن العلاقات الاجتماعية الثنائية بين شخصين من أعضاء مجتمع معين تعتبر وحدة من وحدات البناء الاجتماعي. **(هالة منصور، 2000، ص212-213)**

وفي نهاية الحديث عن **راد كليف بروان** نود أن نشير إلى أنه مؤسس قواعد المنهج العلمي للأنثروبولوجيا الاجتماعية بمعناها الحديث ولذلك كثيراً ما يقال عنه إنه الأب الروحي للأنثروبولوجيا الحديثة... حيث ينظر إلى راد كليف براون على أنه المصدر الأساسي الذي صدرت عنه مختلف التعريفات التي حددت مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومفهوماتها وحدودها، وبالتالي قامت برسم مختلف الملامح الجوهرية لمناهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية. **(هالة منصور، 2000، ص79)**

رابعاً: الأنثروبولوجيا النفسية.

وتسمى في بعض المؤلفات ب **"الثقافة والشخصية"** والحاجة العلمية الداعية إلى إنشاء هذا الفرع هي محاولة التدريب العلمي للباحثين حتى يتمكنوا من القدرة على القيام بمراحل البحث والتحليل المختلفة، والتي تتطلبها الأبحاث التي تشتغل على ما يسمى السيكوثقافي.

إن **موضوع الأنثروبولوجيا النفسية** يكمن في البحث عن العلاقة بين الثقافة والشخصية، وهي علاقة تكاملية يستفيد منها الباحثون

المشتغلون في مجال الأنثروبولوجيا، من خلال الاستفادة من الأبحاث التي يجريها علماء النفس حول الشخصية فتمكنوا من معرفة الأنماط وأنواع الشخصية التي توجد بالمجتمعات الإنسانية، البدائية والمعاصرة، وبالمقابل استفاد الباحثون في مجال الدراسات السيكولوجية من معرفة الأثر الذي تحدثه الثقافة في بناء وتشكل شخصية الفرد. **(مختار رحاب،2022، ص41)**

والأنثروبولوجيا الثقافية، تأثرت بعلم النفس والتحليل النفسي من خلال دراستها للعلاقة الموجودة بين الثقافة والشخصية، نظراً لأنها انطلقت من فرضية أساسية هي أنه أثناء مرحلة الطفولة تتكون شخصية قاعدية هي تعبير مميز عن الثقافة التي نأملها ونرجوها. وهي التي ستشكل ما يسمى لاحقاً بالثقافة الإثنية أو الاجتماعية وفيما بعد بالثقافة الوطنية، ويصبح الفرد مطبوعاً بطابع ثقافة مجتمعه، ومن أشهر أقطاب هذه النزعة التي سميت بالنزعة الثقافية وكذلك بالدراسات الثقافية والشخصية، هم "مرغريت ميد" "**بنديكت**"، "**رالف لينتون**"، "**كاردينار**"، إلا أن هذه النزعة وقعت في سلبيات أثناء تصنيفها لمختلف الثقافات، وعلى رأس هذه السلبيات التمييز العنصري بين الثقافات... **(مصطفى تيلوين، 2017، ص 37)**

خلاصة

تعكس جملة الفروع في الحقل الأنثروبولوجي، المذكورة سابقاً شمولية الدراسة الذي تتميز به الأنثروبولوجيا، خصوصا اهتمامها بالإنسان في جوانبه المختلفة (العضوية، الاجتماعية الثقافية والنفسية وبالتالي فإن هذه الفروع متكاملة في فهم الإنسان وطبيعته على المستوى المذكور أنفاً.

5- المحاضرة الخامسة: من علم الاجتماع إلى الأنثروبولوجيا.

تمهيد.

تعتبر الأنثروبولوجيا من العلوم الإنسانية والاجتماعية البارزة، وفي اطار سابق ضمن سلسلة المحاضرات المعروضة في هذا المقياس، اطلعنا في إحدى المحاضرات على طبيعة علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع، وهذا العنصر بعنوان من علم الاجتماع إلى الأنثروبولوجيا يجسد لنا بطريقة أكثر ثراء ودقة محصلة هذه العلاقة، ويبين لطالب أن علم الاجتماع والأنثروبولوجيا على قدر من التداخل في تناول المواضيع الاجتماعية، وبالتالي يتمكن الطالب من تعزيز معارفه حول الأنثروبولوجيا في جانبها الاجتماعي.

...تعكس لنا تحليلات تراث علم الاجتماع التقليدي النشأة التطورية لظهور هذا العلم على أيدي رواده الأوائل من أمثال "**أوغست كونت**" و "**دوركايم**" و "**سبنسر**" أن الهدف الأساسي لهذا العلم تكمن في

ضرورة دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية بصورة علمية ومنتظمة ومدروسة. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، د. سنة، ص32)**

وقد عرف "**تالكوت بارسونز**" علم الاجتماع بأنه: "علم دراسة المجموعات البشرية، والعلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية ووظائفها في الحياة الاجتماعية." **(محمد عبد السميع عثمان، د. سنة، ص16)**

تنطوي أهمية علم الاجتماع ومهام المتخصصين في هذا العلم في تطبيق الدراسات الميدانية وإجرائها في المجتمع ومؤسساته وتنظيماته المختلفة، وهذا ما جعل مهمة علم الاجتماع منذ نشأته الأولى مكرسة لإجراء البحوث، واختبار النظريات والفروض التي يطرحها بغرض التحقق منها أو تعديلها أو تحديثها أو الوصول إلى قوانين وتعميمات بصددها، وهذا ما ظهر على سبيل المثال منذ أواخر القرن الماضي وخلال النصف الأول من القرن الحالي. عندما ظهرت أهمية علماء الاجتماع في إجراء البحوث الميدانية في الشركات الصناعية كما حدث عند قيام مدرسة شيكاغو بإجراء البحوث الميدانية في العديد من المصانع الأمريكية. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، د. سنة، ص36)**

هذا وركز "**هربرت سبنسر**" على أن موضوع علم الاجتماع الأساسي هو التعرف على نشأة المجتمع وتطوره وعناصره ومراحل تطوره، ثم صنف عدد من الموضوعات الفرعية التي يهتم بها هذا العلم وهي:1- الأسرة. 2- التنظيم السياسي. 3- النظام الديني.4- نسق الضبط

الاجتماعي. 5- المجتمع الصناعي. 6- سوسيولوجيا المعرفة. 7- علم الاجتماع العلمي. ..إلخ. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، د. سنة، ص39)**

وعلى عالم الاجتماع أن يقيم تصوراً معيناً عن طبيعة الإنسان، ومن الطبيعي أن يؤثر هذا التصور على الدراسات التي يجريها عالم الاجتماع. وعلى الرغم من ذلك نلحظ اتجاهاً شائعاً في علم الاجتماع يميل إلى رفض تفسير الظواهر الاجتماعية في ضوء العوامل السيكولوجية التي تتألف منها الحياة الاجتماعية. **(أليكس إنكلز، 1983، ص101)**

ومع بدايات تطور نشأة الأنثروبولوجيا والاهتمام بها في الأوساط الأكاديمية وخاصة مع البدايات الأولى على أيدي كل من "**السير جيمس فريزر**"، الذي حدد تعريف الأنثروبولوجيا بأنها عمل دراسة المجتمعات الإنسانية ولاسيما المجتمعات البدائية أو البسيطة. هذا ما أكد عليه "**ايفانز بريتشارد**" والذي حدد ذلك التعريف بضرورة أكثر على الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ولكن ما لبث أن تعددت أنواع وأقسام ومجالات الأنثروبولوجيا في الوقت الراهن وأصبح هناك الأنثروبولوجيا الثقافية، بالإضافة إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وأصبح المنهج الأنثروبولوجي من المناهج الاجتماعية المميزة التي يستخدمها كل من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع وغيرهم من العلوم الاجتماعية الأخرى، خاصة وأنه يعتمد على الملاحظة المباشرة أو عن طريق المعايشة التي يقوم بها الباحث لمجتمع الدراسة للوصف والدراسة والتحليل بصورة أكثر دقة،

وقد تعتمد هذه الفترة إلى سنوات. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، د. سنة، ص70-71)**

ويمكننا أن نميز في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية بين مرحلتين مختلفتين من حيث مجال الاهتمام أو الدراسة، تميزت المرحلة الأولى منها بدراسة النظم الاجتماعية، دراسة تطورية منذ بدء ظهور الثقافة حتى وقت الدراسة. وكانت هذه الدراسات تحاول أن تتعمق في الماضي البعيد، بهدف الوصول إلى المراحل التي مرت بها تلك النظم، وقد كان هذا الطابع سائداً في الدراسات الأنثروبولوجية، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. **(هالة منصور، 2000، ص62)**

وكانت الفكرة الأساسية لتلك الدراسات تنطلق من أن أي نظام اجتماعي، أو عادة اجتماعية، لابد أنها قد مرت بسلسلة من مراحل التطور، حتى وصلت إلى الشكل الذي توجد عليه، كما ارتبط هذا الاتجاه أيضاً بما عرف بالانتشار الحضاري بمعنى أن أي نظام اجتماعي، أو أي تقليد اجتماعي معين لابد أن يكون قد نشأ في مكان معين، وزمان معين، ثم انتقل بعد ذلك من مركز نشأته إلى أماكن أخرى. ومن هنا يبدأ في البحث عن أي الأماكن كان مركز النشأة وأي الأماكن قد استعارته من مركز نشأته الأولى. وهناك من العلماء من آمن بوحدة النشأة بمعنى أن أي نظام لابد وأن يكون قد نشأ لأول مرة في مكان معين ثم انتقل بعد ذلك إلى الأماكن الأخرى، وهناك أيضاً من آمن بتعدد النشأة، بمعنى أن النظام

الاجتماعي أو التقليد الاجتماعي رغم تشابهه بين مجتمع وآخر، فإن هذا التشابه قد حدث تلقائياً في أماكن متعددة، دون أن يكون هناك حتمية استعارية من مكان إلى أخر. **(هالة منصور، 2000، ص63)**

وعلى هذا الأساس فقد كان الاهتمام منصباً في هذه المرحلة على ثلاثة موضوعات أساسية هي: نشأة الأنظمة الاجتماعية، ثم تطورها، ثم انتشارها من مكان إلى آخر. وهو ما أطلق عليه بالمدرسة التطورية والمدرسة الانتشارية. **(هالة منصور، 2000، ص63)**

أما المرحلة الثانية من الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، فقد تميزت هي الأخرى بدراسة النظم الاجتماعية، ولكنها دراسة تختلف في اتجاهها وطرقها وأساليبها عن الدراسات المنتمية إلى المدرسة التطورية أو الانتشارية، حيث اهتمت بدراسة النظم الاجتماعية، كما هي في حالتها الراهنة وقت الدراسة، بهدف دراستها دراسة تحليلية، لتحديد وظيفتها للبناء كله، وهو ما أطلق عليه الاتجاه الوظيفي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، حيث لعبت المفاهيم الوظيفية دوراً مهماً في الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية من خلال ضرورة دراسة النظم الاجتماعية في حدود سياقها الاجتماعي، الأمر الذي ترتب عليه نتائج موضوعية ومنهجية أدت إلى نمو الأنثروبولوجيا الاجتماعية كعلم متميز. **(هالة منصور، 2000، ص63)**

وعموماً، لقد ارتبطت تحليلات دراسات الأنثروبولوجيا بمجموعة كبيرة من رواد علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا من أمثال "**راد كليف بروان**" و "**مالينوفسكي**" و "**كروبر**"، وغيرهم آخرون ولقد تأثر بهذه التحليلات كثيرة من رواد علم الاجتماع من أمثال "**دوركايم**" وغيره من رواد الاتجاه البنائي الوظيفي في دراسة الحياة الاجتماعية في المجتمعات الحديثة. كما تعددت اهتمامات الأنثروبولوجيا في الوقت الراهن ولم تقتصر على دراسة المجتمعات البدائية أو البسيطة فقط ولكن أصبحت أيضاً تهتم بدراسة مشكلات المجتمع الحديث وخاصة المناطق المتخلفة، والمناطق الصناعية، وتحليل مشكلات الجريمة والأعراف في المجتمعات المتحضرة لتشارك عموماً مجموعة اهتمامات علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية في الكثير من الميادين والمجالات المختلفة. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، د. سنة، ص71)**

ويعتبر علم الاجتماع من أقرب العلوم لعلم الإنسان نظراً لأن كلاً من العلمين يهتم بالدور الذي يقوم به الإنسان من خلال وجوده في محتوى اجتماعي وكل من الأنثروبولوجي والاجتماعي يحاول فهم العادات والتقاليد الخاصة بالشعوب التي تنتمي إلى ثقافات معينة، لكن الأنثروبولوجي يتميز باهتمامه الخاص بالبحث عن القوانين العامة للسلوك الإنساني، وذلك عن طريق دراسة كل جوانب السلوك الإنساني وليس كما يفعل المتخصص في علم الاجتماع من خلال عينة أو نماذج محددة من

الجماعة. كما وأن الأنثروبولوجي ينظر إلى الإنسانية ككل ولا يحدد نفسه في دراسة ثقافية واحدة كالثقافة الغربية. كما أنه يرى أنه من الضروري لكي يصل إلى فهم أعمق للسلوك الإنساني يجب عليه أن يدرس الإنسان في كل مكان، ومن ثم فإن الدراسات الأنثروبولوجية امتدت إلى دراسة كل الثقافات الإنسانية الأخرى. فضلاً عن أنها تركز على ميادين أخرى كثيرة كميدان ثقافة الإنسان في مرحلة ما قبل التاريخ باعتبار أن دراسة هذه المرحلة هي أساس دراسة الثقافات الإنسانية المختلفة. **(فاروق أحمد مصطفى، 2003، ص16-17)**

خلاصة.

خلاصة القول، أن علم الأنثروبولوجيا هو امتداد لعلم الاجتماع، وكلا العلمين يهتم بدراسة المجتمعات والنظم الاجتماعية وتطوراتها، غير أن جوهر الاختلاف هو أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تتجه أكثر نحو المنهجية النوعية (الدراسات الميدانية الحقلية، وكذا تعتمد على معايشة الباحث لميدان الدراسة اضافة إلى الأدوات المنهجية كالمقابلات المعمقة وغيرها) عكس علم الاجتماع الذي يتجه أكثر ليكون علماً وضعياً قائم على المنهج الكمي بصفة أكثر، ولا ننسى أن نؤشر إلى أن علم الاجتماع يقترب أكثر من الأنثروبولوجيا عندما يستخدم المنهج المقارن كما سبق وذكرنا في المحاضرات السالفة الذكر.

6/ المحاضرة السادسة: الأنثروبولوجيا التقليدية، الموضوع والهدف.

تمهيد

نسعى من خلال هذه المحاضرة، إلى إبراز مجالات اهتمام الأنثروبولوجيا التقليدية والموضوعات التي كانت تركز على دراستها، وكيف انصب اهتمامها على دراسة المجتمعات البدائية، ونقف من خلالها على العوامل التي أدت إلى النظر لعلم الأنثروبولوجيا باعتباره علماً استعمارياً وخادم لأهداف توسعية استعمارية، وبالتالي توضيح الهدف العام من هذا العلم وتوجهاته التقليدية.

...يعد **"جيمس فريزر"** أبرز ممثلي التراث القديم في الأنثروبولوجيا التي تعتمد على التأمل والتحليل المكتبي، والذي حاول من خلال أعماله أن يؤلف بين المعلومات المتباينة والمتنوعة والتي جمعها علماء آخرون من شتى أنحاء العالم، ويصيغ من خلالها نظرية تخمينية أو افتراضية حول أصول الثقافة. **(جوردن مارشال، 2000، ص228-229)** وعليه فالأنثروبولوجيا في بدايتها اعتمدت على التخمين والافتراضات، وكذلك على المعلومات التي يُدلي بها المخبرين ولم تكن تعتمد على دراسات حقلية ميدانية بشكل كبير.

هذا وتعتبر الأنثروبولوجيا من العلوم الاجتماعية التي لم تدخل دائرة العلوم الاجتماعية الأكاديمية منذ نشأتها الأولى، أو بمعنى آخر ، لم

يُدرس هذا العلم في المعاهد والجامعات العلمية بقدر ما نشأ في إطار الجيوش، وخاصة عندما سعت الدول الغربية لتكوين المستعمرات فيما وراء البحار خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر. فلقد اهتمت الدول الغربية بدراسة الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد واللغة والنشاط الاقتصادي والسياسي في الدول التي كانت تريد استعمارها، وذلك بهدف التعرف بصورة مدروسة على كيفية التعامل مع شعوب هذه المجتمعات وأفضل السبل للسيطرة عليها. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، د. سنة، ص70)**

في البداية ركز علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على **المجتمعات البدائية** لاعتبارات منهجية وأخرى موضوعية، وإذا ما حاولنا تحديد ما يعنيه اصطلاح "المجتمعات البدائية" باعتبار أن ماهية المجتمع البدائي كان ولا يزال مجالاً للجدل والمناقشة بين العلماء الذين اختلفوا من ناحية أي المجتمعات يمكن أن يطلق عليه، اصطلاح حديث أو متمدن. وكان السائد بين الأنثربولوجيين بصفة عامة أن المجتمعات البدائية هي تلك المجتمعات التي تتميز بصغرها من ناحية المساحة، وعدد السكان، والتي تتميز في الوقت ذاته ببساطة ما يسود فيها من علاقات اجتماعية، وخاصة ما تعلق من هذه العلاقات بالنواحي الاقتصادية، والفنية، والعلمية، وتقسيم العمل. **(هالة منصور، 2000، ص20-21)** حيث كان يُنظر إلى

المجتمعات البدائية على أنها مجتمعات ذات علاقات وروابط اجتماعية بسيطة وتمثل حسبهم المراحل الأولى للمجتمعات الإنسانية.

إلا أنه، نظراً لتطور الحياة الاجتماعية، بدأت المجتمعات البدائية بالمعنى الثقافي تندثر، وذلك لعدة أسباب تتراوح ما بين تعرض بعضها للإبادة بسبب الحروب أو الغزوات، أو نتيجة لثورة الاتصالية، التي أدت إلى تغير بعض أنماطها الثقافية، لذلك اتجهت الدراسات الأنثروبولوجية في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى المجتمعات الأكثر تطوراً، كما بدأت بالاهتمام بدراسة بعض النظم الاجتماعية في المجتمعات الحديثة. **(هالة منصور، 2000، ص22)**

خلاصة

نستخلص مما سبق عرضه، أن الأنثروبولوجيا التقليدية اهتمت بموضوعات متعلقة بالأساس بالمجتمعات الأولية وكان لها ارتباطات بأهداف المستعمر، ولكن هذا لا يلقي أهمية الأنثروبولوجيا وأهمية سعيها لفهم حياة الإنسان والجماعات البشرية في سياقاتها البسيطة والأولية.

7/ المحاضرة السابعة: التيارات الأنثروبولوجية.

تمهيد:

تعد التيارات الأنثروبولوجية توجهات فكرية تعكس لنا توجهات ومنظورات مختلفة في التعامل مع الثقافة الإنسانية وتبين لنا منطلقات ممثلي كل اتجاه. لذلك قمنا بعرض أهم هذه التيارات على النحو التالي:

أولاً: التيار التطوري

النظرية التطورية أو بالأحرى هذه التسمية، ارتبطت بعلم البيولوجيا عند "**تشارلز داروين**" الانجليزي، و "**لامارك**" الفرنسي، في القرن التاسع عشر، ولقد أثرت في الكثير من العلوم الإنسانية كالفلسفة الاثنولوجيا. وهذه النظرية تنطلق من فكرة أساسية وهي أن المجتمع يشبه العضوية الحية (الجسم الحي) دون أن تهمل هذه التطورات التي تحدث للمجتمع، وهي بذلك تشبه تطور الجسم الحي. وتضيف هذه النظرية أنه حتى الصفات المعنوية مثل: الثقافة والتقاليد، العادات والأعراف تورث كما تورث الصفات البيولوجية، وهذا ما يساعد هذه النظرية في تحسين تقنيات تنظيم المجتمعات من خلال مؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية. ويعتبر "**مورغان**" (Morgan) بأنه أول من قسم المجتمعات تقسيماً ينطلق من النظرية التطورية إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة التوحش، المرحلة البربرية ثم مرحلة الحضارة. **(مصطفى تيلوين، 2017، ص81)**

ويتزعمها ثلاث أقطاب هم كالتالي: (**تيلور إدوارد برنت- مورغان هنري لويس، فريزر جيمس**)، هذا إضافة إلى العالم والأنثروبولوجي "**تايلور**" كقطب من أقطاب هذه النظرية. **(مصطفى تيلوين، 2017، ص80)**

ولعل أشهر الجهود على طريق التطورية، تلك الجهود التي قام بها عالم الطبيعة والأحياء "**تشارلز دارون C. Darwin (1809- 1883)**، حيث نشر عام 1858 كتاباً يعد ثورة فكرية وعلمية هامة تأثرت بها دراسات الإنسان والمجتمع على السواء، وكان عنوان هذا الكتاب "**أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي أو حفظ السلالات المفضلة في الصراع على الحياة** The Origin of Spesies by Means of Natural Selection or the or the Preservation of Favoured Races in the Struggle For Life، وبعكس العلماء السابقين الذين اكتفوا بملاحظة التطور أو الإشارة إليه، فإن دارون قام بشرح الأسس الشهيرة للانتخاب الطبيعي. **(سعيد اسماعيل علي، 1999، ص24)** أما هذه الأسس التي قامت عليها فكرة دارون، فتتلخص فيما يلي:

- توجد في الطبيعة اختلافات في الأنواع والأفراد.

- عن طريق النسبة الهندسية لمعدل زيادة الأفراد التي تحدث نتيجة للتكاثر فإن عدد أي نوع يجنح نحو الزيادة المطردة، ولكن العدد النهائي في

الواقع يبقى ثابتاً بسبب موت العديد من الأفراد عن طريق الأعداء والمرض وقلة الغذاء وغيرها من عوامل الفناء.

- في ظل هذه الظروف يحدث تنازع للبقاء أو صراع من أجل الحياة بين الأفراد تكون نتيجته القضاء على الأفراد غير الصالحين للبقاء، وبقاء الأفراد الصالحة، وهذه الأفراد الصالحة تظل تتكاثر.

- نتيجة لتنازع البقاء أو الصراع من أجل الحياة تسود عملية الانتخاب الطبيعي وتكون من نتيجتها بقاء الأصلح. **(سعيد اسماعيل علي، 1999، ص24- 25)**

وفي إطار هذه النظرية تراءى **"لدارون"** أن الإنسان لا بد وأن يكون قد بقى طوال تاريخه العضوي خاضعاً لنفس السنن التي خضعت لها جميع الكائنات الحية، وبعد أن نشر **"دارون"** كتابه **"أصل الأنواع"** وقبل الطبيعيون نظريته في جملتها، فكر في أن يطبق هذه النظرية على الإنسان، فانكب على المعلومات التي كان قد جمعها والحقائق التي كان قد توصل إليها، يرتبها ويوازن بينها ويستخلص منها النتائج التي يثبت بها أن الإنسان قد نشأ من صورة دنيا هي أقرب إلى القردة العليا، منها إلى صورة أخرى من صور الحيوانات الأخرى. وليس معنى هذا أن الإنسان ينحدر أصلاً من القردة العليا ولكنه يشترك معها في أسلاف بعيدة تنتمي إلى رتبة الرئيسيات. **(سعيد اسماعيل علي، 1999، ص25)**

... وقد ميز "**أرنست ماير**" في مقال نشره في مجلة طيف العلوم أربعة مسلمات تعد مركزية في نظرية داروين للتطور. وفيها يتبين أن العالم لا يُفهم سكونياً بل هو يُفهم كحركة دائبة، **فأولًا** الأنواع تتغير بصورة متصلة وبعضها يفنى والبعض الآخر ينشأ من جديد. وكما تثبت البقايا الإحاثية فإن هذا التغير في شروط الحياة، والتطور **ثانياً** يتحقق ببطء شديد وبصورة متصلة فلا تحصل فيه قفزات فجائية. وثالثا يعتبر **داروين** أنه بوسعنا أن نرجع "كل ما هو حي إلى قفزة أصلية واحدة مشتركة". ورابعاً ينطلق داروين من نظرية الانتخاب الطبيعي أو الاختيار. وخلال توالي الأجيال ينشأ تنوع كبير في الزاد الوراثي. وبذلك تتواصل "دون شك حياة الأنواع التي تكون أفضل توليفات صفاتها أكثر مناسبة للتوافق مع الوسط البيئي". ويتحقق التطور بفضل التناوب بين مراحل من الركود ومراحل من التغير المتسارع **(كريستوف فولف، 2009، ص33-34)**

قبل أن يبدأ الباحثون بزمن طويل في جمع الأدلة المادية على أوجه الشبه المتعددة بين الإنسان الحديث والحيوانات الأخرى، وقبل أن يضع "**تشارلز داروين**" و "**جريجور مندل**" أُسس فهمنا للمبادئ والآليات التي يقوم عليها الترابط في عالم الأحياء؛ كان فلاسفة الإغريق قد توصلوا إلى أن البشرية الحديثة كانت جزءاً من العالم الطبيعي، وليست منفصلة عنه. متى إذن بدأت عملية استخدام العقل في محاولة فهم أصول

الإنسان، وكيف تطورت؟ ومتى طُبق الأسلوب العلمي لأول مرة في دراسة تطور الإنسان؟ **(برنارد وود، 2016، ص15)**

قدم "**أفلاطون**" و"**أرسطو**" في القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد أوَّل أفكار مسجلة عن أصل البشرية؛ إذ أشار هذان الفيلسوفان الإغريقيان إلى أن العالم الطبيعي بأكمله، بما في ذلك الإنسان الحديث، يُشكل نظاماً واحداً، يعني هذا أن الإنسان الحديث لابد أنه نشأ تماماً مثل الحيوانات الأخرى. وقد اقترح الفيلسوف الروماني "**لوكريتيوس**"، الذي كتب مؤلفاته في القرن الأول قبل الميلاد، أن البشر القدامى لم يكونوا يُشبهون الرومان المعاصرين، وقال أن أسلاف البشر كانوا سكان كهوف يُشبهون الحيوانات، ولم يملكوا أدوات أو لغة. لقد رأى كل من المفكرين الإغريق والرومان القدامى أن صُنع الأدوات والنار واستخدام اللغة الشفهية عناصر أساسية للبشرية؛ ومن ثم نشأت فكرة تطور الإنسان الحديث من شكل بدائي أقدم في الفكر الغربي في وقت مبكر. **(برنارد وود، 2016، ص15)**

واعتقد فيلسوف الإغريق "**أرسطو**"، وكثير من مفكري الإغريق من قبله ومن بعده في النشوء الذاتي بقوله إن جميع الكائنات الحية قد خلقت باتحاد مصدرين: المادة، وهي عنصر غير فعال، و "الشكل"، أو "الهيولي"، وهو المصدر الفعال، وعلى ذلك فالمادة في حد ذاتها لا تملك

الحياة، ولكنها قد تَؤويها وتعتبر لها مستقرا، وقد كان لتعاليم "**أرسطو**" أثر كبير على تفكير الأجيال التي تعاقبت من بعده. **(سعيد اسماعيل علي، 1999، ص13)**

وحسب النظرية التطورية فالمجتمعات البشرية كافة تطورت انطلاقاً من أصول هي "نظرية وحدة الأصل، Monogéniste" أو متشابهة على الأقل "نظرية تعدد الأصل، Polygéniste" وقد خُيل إلى العديد من الباحثين بأن كل المجتمعات كانت مرشحة لأن تختار نفس الأطوار بنوع من الضرورة الداخلية وشبه البيولوجية. **(مختار رحاب، 2022، ص158)**

نقد النظرية التطورية:

تعرضت آراء النظرية التطورية ومبادئها إلى جملة من الاعتراضات والانتقادات في تَوجهاتها، وكذلك في نظرة مفكريها لظاهرة التطور، خاصة ما يتعلق بمراحل تطور الإنسان وأصله، ويمكن ايجاز بعض الانتقادات كالتالي:

- إن الواقع الذي نشاهده على صعيد الحياة، يتنافى بشكل حاد مع ما أسماه "**داروين**" بقانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فإن الكون لايزال بعد كل الذي قطعة من عمره المديد، يعج بالأصلح وغير الصالح من شتى صنوف الحيوانات بدءاً بالهلاميات إلى القردة فالإنسان.

ولو كان قانونه صحيحاً لكان من أبسط مقتضياته الواضحة أن يتجاوز موكب السباق الحيواني نقطة البدء على أقل تقدير، مهما فرضنا البطء في حركة التطور والاصطفاء، ولكن ها هي ذي نقطة البدء لا تزال تفور بحيواناتها الضعيفة المختلفة، ولا تزال تتمتع بحياتها وخصائصها المعاشية كما كان يتمتع بها السابقون مثلا بمثل.

- إن كل ما رصده الإنسان من معارف عن التاريخ والتاريخ الطبيعي، دلَّ على أن كل نوع من أنواع الحيوانات على اختلافها قوة وضعفاً، تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن، لا تحت سلطان ما يسميه "**داروين**" بمبدأ البقاء للأصلح. بل بسبب عوامل طبيعية مختلفة تتغلب عليها، وهي حقيقة مشاهدة لا تنكر.

- إن الموت من حيث هو ظاهرة يتناقض كلياً مع ما يراه "**داروين**" من أن الطبيعة تسير مع جماعة الأحياء حسب قانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فأي بقاء يتم للأصلح إذا كان الموت يتربص به؟ **(مختار رحاب، 2022، ص161)**

إذا كانت النظرية التطورية قد حققت السيادة والريادة في القرن التاسع عشر على مستوى الفكر الإنساني، فإنها مع ذلك قد واجهت انتقادات علمية مركزة وواسعة النطاق، منها أن النظرية التطورية: **كانت نتائجها التي توصلت إليها في دراستها للثقافات الإنسانية غير صحيحة،**

وذلك لأنها اعتمدت على الحدس والتخمين، وتعميم الأحكام المطلقة دون أن تستند إلى براهين وقرائن علمية واقعية امبريقية، وبذلك ومع بداية القرن العشرين، دب عليها الاضمحلال، وحلت محلها في ساحة النقاش الفكري والعلمي اتجاهات فكرية ونظريات علمية جديدة، اشتغلت واهتمت بدراسة الحياة الثقافية والاجتماعية البشرية من حيث نشوئها وتحديد عناصرها ومكوناتها. بالإضافة إلى تتبع مراحل تطورها، وظهرت تجليات ومعالم هذه الأفكار الجديدة مع بداية الربع الثاني من القرن العشرين، وكانت في مجملها ثلاث نظريات أو اتجاهات متفاعلة فيما بينها درست أسس ومنطلقات وأهداف العلوم الاجتماعية عموما، وقامت وبفاعلية كبيرة بإرساء دعائم الأنثروبولوجيا. **(رحاب مختار، 2022، ص160-161)**

ثانياً: التيار الانتشاري التاريخي

النظرية الانتشارية ولدت من خلال انتقادها للنظرية التطورية ومن هنا نتساءل: ما هو موضوعها؟ إن هذه النظرية تؤكد على دراسة التاريخ الثقافي لمجتمع ما من أجل فهم خصائصه الحالية... **(مصطفى تيلوين، 2017، ص96)**

أدخل **تايلور** Tylor مصطلح "**الانتشار**" (**Diffusion**) إلى علم الأنثروبولوجيا، للإشارة إلى انتقال مجموعة من العناصر أو **السمات**

الثقافية عبر المكان. ربما يرجع انتقال العناصر المادية أو اللامادية للثقافة إلى هجرة حملة هذه الثقافة إلى مناطق أو أقاليم جديدة، أو ممن خلال عملية النقل أثناء الاتصال الثقافي.

ففي القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين شهدت الأنثروبولوجيا جدلاً هاماً بين أنصار المذهب التطوري أو الاختراع المستقل. فعلى حين يذهب التطوريون إلى أن السمات السيكولوجية العامة يتولد عنها اختراعات متماثلة في أنحاء مختلفة من العالم، يعتقد الانتشاريون أن هناك عناصر ثقافية هامة قد ظهرت في أماكن قليلة جداً من العالم - أو حتى ربما في مكان واحد فقط- ثم انتشرت خارج هذا المكان من خلال عملية الانتشار.

كان الأنثربولوجيين الانجليز – أمثال **اليوث سميث Elliot Smith**، **وبيري Perry**- من أنصار النظرية الشمسية الهليوليثية التي تذهب إلى أن الثقافات ظهرت دفعة واحدة – في مصر- ثم انتشرت منها إلى مختلف القارات.

هناك منظور آخر أقل تطرفاً من النظرية الانتشارية طورته **مدرسة الدائرة الثقافية**، والمدرسة التاريخية الثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يميل هؤلاء المفكرون إلى التحليل التاريخي الجغرافي للعلاقات بين الثقافات، **المناطق الثقافية**، أكثر من أسلوب

التاريخ الظني عند التطوريين. وقد تراجع اهتمام الأنثروبولوجيا الحديثة بإعادة البناء التاريخي، والجدل بين الانتشارية والتطورية لصالح دراسات متنوعة الاتجاهات للبناء الاجتماعي والعملية التاريخية. هذا برغم أن دراسات **التكيف الثقافي** مازالت تولي اهتماماً لدراسة العمليات التي تنتقل من خلالها العمليات الثقافية من جماعة لأخرى، والطريقة التي تنتقل من خلالها مثل هذه العناصر ويتم تكيفها في بيئاتها الجديدة. **(شارلوت سيمور. سميث، 2009، ص112)**

ثالثاً: التيار الوظيفي.

إذا نظرنا إلى الاتجاهات الأنثروبولوجية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، سواء من خلال كتابات أصحاب الاتجاه التطوري أو الاتجاه الانتشاري. نجد أنها قد عانت الكثير من أوجه الضعف، والتي كان من أهمها أن تلك الدراسات قد اتجهت في الأساس إلى الاهتمام بفكرة نشأة الثقافة وتطورها دون الاهتمام بتوضيح العلاقة الوظيفية بين العناصر الثقافية المختلفة في المجتمع الإنساني. حيث كانت أنثروبولوجيا القرن الثامن عشر والتاسع عشر منكبة بشدة على دراسة المجتمعات البدائية بهدف تتبع تطور أو انتشار وهجرة النزعات الثقافية عبر المجتمعات الإنسانية. بالإضافة إلى أن دراساتهم قد عانت من وجه أخر من أوجه القصور تمثل في أنه عند دراسة أي مظهر أو نظام اجتماعي عادة ما كانوا يقومون بدراسته في حد ذاته دون محاولة ربطه بالسياق

الاجتماعي الذي يحويه. إلى جانب اعتمادهم على كتابات وملاحظات غير دقيقة نظراً لعدم قيامهم بأنفسهم بأية دراسات حقلية. **(هالة منصور، 2000، ص71)**

ومن هنا فإن ظهور المبدأ الوظيفي في علم الأنثروبولوجيا كان بمثابة رد فعل لتلك الدراسات في محاولة لتجاوز نقاط الضعف والقصور التي عانت منها، حيث ظهر الاتجاه الوظيفي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية خلال القرن العشرين وشكل انقطاعاً جوهرياً مع الماضي. **(هالة منصور، 2000، ص71)**

وقد انطلقت الدراسات في هذا الاتجاه من مبدأ أهمية دراسة النسق الاجتماعي مؤكدة أن أي نظام لابد أن يدرس من خلال إطاره الاجتماعي الذي يحويه، أي عدم الفصل بين موضوع الدراسة والوسط الاجتماعي في مرحلة زمنية محددة. **(هالة منصور، 2000، ص71-72)**

أما التيار البنيوي: فقد تأثرت النظرية البنيوية بعدة مرجعيات علمية كالبيولوجيا واللسانيات والتحليل النفسي والماركسية، فالمرجعية البيولوجية نجدها عند "**هربرت سبنسر**" الذي ألف كتاباً بعنوان "مبادئ السوسيولوجيا" سنة 1876، والذي شبه فيه المجتمع بالكائن الحي، حيث يقول بأن المجتمع هو تنظيم أو بنية تتطور كما يتطور

الكائن الحي، وأن هذا المجتمع يستمر في الوجود بفضل مجموع العلاقات التي تربط بين مكوناته. **(أمحمد مهدان، 2013، ص74)**

أما بالنسبة للسانيات، فقد تأثرت البنيوية بأبحاث اللغوي الفرنسي "**دو سوسير**" الذي ألف كتاباً بعنوان "دروس في اللسانيات العامة" (1916)، حيث يرى أن اللغة ليست مجرد كلمات ومعاني، بل تتكون من بنيات وعلاقات مختلفة... **(أمحمد مهدان، 2013، ص74)**

ولعل "**كلود ليفي ستراوس**" الوحيد بين البنائيين الفرنسيين، الذي يستخدم كلمة (بناء أو بنائية) صراحة في عناوين كتبه ومقالاته، ابتداء من مقاله الذي كتبه عام 1945، عن "التحليل البنائي" في اللغويات وفي الأنثروبولوجيا، والذي يعتبر - بحق- "ميثاق" النزعة البنائية، وإلى كتاب "الأبنية الأولية للقرابة" الذي كان سبباً في ذيوع اسمه وشهرته، والذي يعتبره الكثيرون أهم وأفضل إنجاز في الأنثروبولوجيا الفرنسية على الإطلاق. ومن ثم إلى كتابه "الأنثروبولوجيا البنائية". **(عيسى الشماس، 2004، ص60)**

و"**كلود ليفي ستروس**" الذي ارتبط اسمه بالبنيوية وارتبطت هذه الأخيرة باسمه، وهو فيلسوف وأنثروبولوجي فرنسي من مواليد عام 1908، اهتم بدراسة الأسطورة، القرابة والعلاقات العائلية، أنظمة الزواج... وكانت أغلب أبحاثه الميدانية قد أجراها في البرازيل خصوصاً خلال فترة

الحرب العالمية الثانية حيث غادر فرنسا، كان قد مارس مهنة التدريس في جامعة Sao Paulo بالبرازيل، كما درس بجامعات نيويورك، ثم باريس خصوصاً كولي دي فرانس Collége de France. **(مختار رحاب، 2022، ص190)**

ويعتبر "**ليفي ستراوس**" المجتمع بأنه تجمع من الأفراد والجماعات التي تتواصل فيما بينها، حيث حدد مهمة السوسيولوجي في فك الرموز الثابتة التي تختفي وراء المظاهر الاجتماعية، وهوما سماه بالبنية الخفية للعقل البشري؛ أي إظهار البنيات التي تختفي وراء الوقائع والأحداث. **(أمحمد مهدان، 2013، ص76)**

وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت إليه، فلا يزال يؤمن بأن البنيوية (البنائية) هي أكثر المناهج قدرة على تحليل المعلومات وفهم الاثنوجرافيا وتقريبها إلى الأذهان، وإنها في الوقت نفسه، أفضل وسيلة يمكن بها تجاوز المعلومات والوقائع العيانية المشخصة، والوصول إلى الخصائص العامة للعقل الإنساني. فقد أفلح في أن يحقق للبنائية ما لم يحققه غيره، مع أنه لم يقم بدراسات حقلية بين الشعوب المتخلفة (البدائية)، وحتى حين قام بدراساته في (البرازيل والباكستان) كان يمضي فترات قصيرة ومتباعدة بين الجماعات التي درسها، وخرج بالبنائية من مجال الأنثروبولوجيا، إلى ميادين الفكر المختلفة، الواسعة والرحيبة.

وجعل منها اتجاهاً فكرياً ومنهجياً يهدف إلى الكشف عن العمليات العقلية العامة، وله تطبيقاته في الأدب والفلسفة واللغة والميثولوجيا (الأسطورة) والدين والفن. وبلغ من قوة البنائية أن أصبحت في البداية، تمثل تهديداً مباشراً للوجودية التي تركز على الفرد والسلوك الفردي. **(عيسى الشماس، 2004، ص60-61)**

خلاصة

استناداً إلى المادة المعرفية السابقة، حول أبرز التيارات الأنثروبولوجيا، نصل إلى القول أن الأنثروبولوجيا شهدت عدة تيارات فكرية وغالباً ما كان ظهور أحدها مرتبط بالانتقاد الذي وجه إلى التيار الذي وجد قبله، مما يبين أهمية ذلك في تطور البحث الأنثروبولوجي.

8/ المحاضرة الثامنة: الأنثروبولوجيا الحديثة. (الموضوع والهدف) وأهمية الأنثروبولوجيا في العصر الحالي.

تمهيد

يبرز هذا العنصر من المحاضرة فيما تتجلى أهمية الأنثروبولوجيا في العصر الحالي، من خلال دور الأنثروبولوجيا في سياقها الاجتماعي والثقافي ودورها في تناول القضايا المتعلقة بالإنسان.

في عالمنا المعاصر شديد التشابك والاحتكاك أصبحت الحاجة إلى إعطاء دروس في الأنثروبولوجيا في الكليات والجامعات والمدارس شديدة الإلحاح، وذلك بعد أن تبين للعلماء والمدرسين مدى الفائدة التي يمكن أن يترتب عليها الإلمام بهذا العلم كتمهيد لعدد من العلوم الإنسانية، وخاصة بالنسبة لبرامج السياسة التعليمية والتخطيط الاقتصادي الاجتماعي، لأن الأنثروبولوجيا هي – كما يدل اسمها- المدخل العريض جداً لدراسة الإنسان ومجتمعاته المختلفة المتغايرة أبداً. **(محمد رياض، 2014، ص76)**

من جهة أخرى، يرى "**مارك أوجي**" في كتابه "أنثروبولوجيا العوالم المعاصرة" أنه "... من الضروري أن لا يتجاوز الموضوع الجديد المرتبط بامتحان المعاصرة حدود الاختصاص. إذ يفترض أن الأنثروبولوجيا اختصاص يهتم الحاضر، بيد أنه بفعل التحرر من الاستعمار فقدت الانثروبولوجيا موضوعها، وبالتالي هل عليها أن تصبح اختصاصاً تاريخياً؟

لكن يبدو أن كل دروس الاستعمار لم تستخلص بعد، وبالطريقة نفسها، يكون من الضروري فيما يتعلق بنموذج "الذنب المحول"، التفكير بشكل خاص في موضوع الحاضر. بالفعل كلما تقدمنا في موضوع المعاصرة كلما زاد خطر تناقص أهمية المعلومات التي يقدمها المخبر فتظهر مكررة عند الباحث (بفعل المعاصرة بين الملاحظ والملاحظ) لذا ينبغي لعالم الأنثروبولوجيا أن يتساءل عن المعاصرة الحقيقية للمتخاطبين، لأن تحول العالم هو من يفرضها". **(مارك أوجي، 2016، ص10)**

يعرف "**مارك أوجي**" **المعاصرة** بالمعنى الذي يفيد أن الحوار بين الملاحِظ والملاحَظ يندرج في عالم حيث يتعرف الواحد على الآخر، وإن كانا يحتلان وضعيات مختلفة ومتفاوتة. بالإضافة إلى ذلك يؤكد الكاتب على أنه ينبغي أن لا تكون لنا صورة تبسيطية بالنسبة لمفهوم المغايرة (طابع ما هو آخر). ليس هناك منظومة ثنائية بين الغرب غير المحدد وبقية العالم، فالآخر، ذلك المغاير تماماً، يعيش تغيراً مستمراً، ولذا يتغير موضوع الأنثروبولوجيا. **(مارك أوجي، 2016، ص10)**

وعلى هذا الأساس ينبغي للأنثروبولوجيا أن تستمر في ميدانها في بعدين: يجب أن تنجز دراسة عن التاريخ الخاص بالأنثروبولوجيا؛ وينبغي لها أن تكرس ذاتها للدراسة (الحاضرة) لموضوعها. يعود هذا التغيير في دراستها لسببين: أما السبب الأول فمرده إلى الطلب الذي تعبر عنه من

مختلف جوانب أحداث الساعة، وأما السبب الثاني فراجع إلى كونها استنفذت كل ميادينها الأولى وكل إمكانيات النقد الذاتي الخاص بكل ميدان. **(مارك أوجي، 2016، ص10)**

إن الحصيلة بالنسبة "**لمارك أوجي**" واضحة، فالأنثروبولوجيا ممكنة ليس هذا وحسب، ولنها ضرورية، وذلك انطلاقاً من تجربة ثلاثية: التعددية (تحيل إلى كل التنوعات وليس فقط إلى تلك التي تحمل دلالة إضافية غرائبية، والمغايرة، والهوية. ومن ثمة سيكون موضوعها المركزي إذاً ما يسميه الكاتب "المغايرة المزدوجة"، أعني ما يكون للآخرين من تصور عن الآخر، وعن الآخرين أيضاً، وعليه يكون الرمزي موضوعاً أولاً للأنثروبولوجيا (مسألة المغايرة عند الآخرين ومسألة المعنى). **(مارك أوجي، 2016، ص10-11)**

لاحظ "**كلايد كلو كهون**" في كتابه البليغ "مرآة للإنسان" أن الأنثروبولوجيا لم تعد محض علم الأقدمين والماضي السحيق. صار هذا المفهوم اليوم أكثر صدقاً من الوقت الذي كتب في سنة 1949، فقد حقق الأنثروبولوجيون اهتماماً متواصلاً بالماضي، ومع ذلك فإن الحاضر أيضاً يفرض اهتمامهم بما في البلاد (أميركا) وأماكن كانت تعد قاصية قبل زمن غير بعيد بأسماء قد تبدو غريبة لبعض الناس. في عصر ابداعات مثيرة للنقل والاتصال وتزايد الصلات الوثيقة بين سكان هذا الكوكب المذهل،

نال العالم الأنثروبولوجي الاهتمام والاحترام. الأنثروبولوجيا كأسس علمية للوفرة، طافحة بقوة بعيدة فريدة ثاقبة جديرة بالاعتبار. **(بيرتي ج بيلتو، 2010، ص11)**

أما عن أهمية الأنثروبولوجيا في العصر الحالي: فإن أهمية الأنثروبولوجيا الاجتماعية وغيرها من فروع هذا العلم المهم تتضح من خلال نوعية الدراسات التي تُجريها وما الأهداف التي تسعى البحوث الأنثروبولوجيا لتحقيقها، وهنا نسترشد بتساؤل العالم "**كليفورد جيرتز**" Clifford Geertz عند تفسيره للثقافة، ماذا يدرس الباحث الاثنوجرافي وما الذي يسعى إلى تحقيقه؟ إن ما تقوم به البحوث والدراسات الأنثروبولوجية من الكشف عن طبيعة المجتمعات، الحفاظ على الموروثات، الكشف على الموارد الطبيعية، الوقوف على الاختلافات بين المجتمعات بيولوجيا، ثقافياً، يعد مبدأ أساسياً للحفاظ على هوية المجتمعات مع محاولات تنميتها اجتماعياً اقتصادياً. **(سناء مبروك، 2022، ص48-49)**

إلى جانب العمل على مواجهة الضغوط ومواطن الضعف التي تعاني منها بعض المجتمعات واستغلال الفرص والإمكانيات لتحسين نوعية الحياة وتحقق الرفاهية الاجتماعية لقد أوحت الدراسات الأنثروبولوجية بالكثير من الأفكار التي تبنتها المنظمات الدولية العاملة من أجل الإنسان

في تحسين نوعية الحياة والعمل على تنمية العديد من المجتمعات مع الحفاظ على هويتها الثقافية منها مجهودات منظمة اليونيسف والبنك الدولي كذلك البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة في الاستعانة بالدراسات الأنثروبولوجية في مناطق عديدة منها باكستان، الفلبين هايتي، نيجيريا، كوريا، نيبال، بنجلاديش وغيرها من المجتمعات التي أسهمت البحوث الأنثروبولوجية في تحسين أحوال سكانها الصحية الثقافية تحديداً. **(سناء مبروك، 2022، ص49)**

... فالإنسان أعظم عجائب العالم يستحق دراسة خاصة به، حتى ولو لم تكن نتائج هذه الدراسة سوى مجرد إشباع الرغبة في الغوص في أعماق العقل الإنساني. ولكن دراسة الأنثروبولوجيا أكثر من هذا، فهي في الحقيقة تؤدي إلى زيادة معلوماتنا عن الإنسان، ويترتب عليها زيادة القوة التي تمكننا من فهم القوى البيولوجية والوراثية لدى الإنسان وضبطها إن أمكن، كما تساعد على تشكيل حضارة ومجتمع الإنسان. وهكذا فإن الأنثروبولوجيا أداة فعالة في الإنسان؛ لأنها تؤدي إلى فهم طبيعة الإنسان ومحاولة إيجاد أسس علمية ومنهجية لفهم مشكلاته وتطوير مجتمعاته بطريقة أكثر اتفاقاً مع كم الظروف البيئية والتاريخية والاجتماعية. والحقيقة أنه لا غنى لكثير من العلوم الاجتماعية عن نتائج الدراسة الأنثروبولوجية.**(محمد رياض، 2014، ص75-76)**

لكن نضوج الأنثروبولوجيا كعلم، وتطور مناهج البحث وأساليب التحليل وتقدمها، وإن ساعد على تخصص العلم أكثر وأكثر، إلا أنه لم يسلب منه جاذبيته الإنسانية الذاتية في كونه بحثاً في الإنسان. ولقد أدت الكشوف العلمية في ميدان ما قبل التاريخ سواء منها كشوف الهياكل الحفرية للإنسان وطلائعه، أو الكشوف الخاصة بتطور معارف الإنسان التكنولوجية والصناعية، أدت إلى إطالة هائلة فيما نعرفه عن تاريخ الإنسان وحضارته ووضع الإنسان المعاصر في محله في تصنيف الحياة على الأرض، وأعطانا أدلة باهرة على الطاقة الخلاقة والمبدعة عند كل الناس عبر مئات الآلاف من السنين. **(محمد رياض، 2014، ص76)**

وكذلك أدت هذه الدراسات الخاصة بوصف وتصنيف الإنسان ككائن بيولوجي (الأنثروبولوجيا الطبيعية- علم الإنسان الطبيعي) بالاشتراك مع الدراسات النفسية إلى مناهضة الاعتقادات السائدة الخاصة بالتمييز العنصري وممارساته. كذلك ساعد التقدم في مناهج البحث في السلوك والمعتقدات واللغة والفن بين مجموعات حضارية مختلفة على التقدم في مجال إدراك الشخصية والحضارة والنظم الحضارية والتطور الذي انتابها، ومن دراسة النظم والقوانين التي تحكم المجتمعات دراسة مقارنة وظيفية أمكن استخراج عدة أنماط لدراسة التغير الحضاري. **(محمد رياض، 2014، ص76)**

خلاصة

ساهمت الأنثروبولوجيا الحديثة من خلال جملة الدراسات التي قامت بها في مواضيع مختلفة، في تحقيق نوع من الفهم العميق الكشف عن طبيعة المجتمعات، الحفاظ على الموروثات، الكشف على الموارد الطبيعية، الوقوف على الاختلافات بين المجتمعات بيولوجيا، ثقافياً، يعد مبدأ أساسياً للحفاظ على هوية المجتمعات

9/ المحاضرة التاسعة: النظريات الأساسية في علم الأنثروبولوجيا

تمهيد:

تبعاً للمحاضرات السابقة، ونظراً لأننا عرضنا ضمن محاضرة التيارات النظرية للأنثروبولوجيا أهم النظريات، جاء هذا المحور مختصر على نظريات أخرى لتجنب التكرار.

التطورية الجديدة:

لقد أدت جملة النتائج والتعميمات التي أطلقها التطوريون الأوائل خلال القرن التاسع عشر خصوصا حول الإنسان والحياة الاجتماعية والثقافية، بروز العديد من الاتجاهات الفكرية المناوئة للأفكار التي جاء بها أصحاب الاتجاه التطوري، خصوصاً مع الربع الأول من القرن العشرين، وكانت جملة منطلقاتها نقد الطروحات التي جاءت بها النظرية التطورية، وعملوا على إبراز بطلان بعض طروحاتهم بالنقد واستخدام الأدلة العلمية في ذلك. **(مختار رحاب، 2022، ص212)**

إن من أبرز الموضوعات الرئيسية التي يهتم بها دعاة التطورية الجديدة هو تحليل تطور الثقافة، ويعتمدون في هذا الشأن الأخير على أشكال مختلفة من التناظر الوظيفي العضوي، كما يقدمون بإجراء المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكائنات البيولوجية من ناحية كونها منتجة للتنوع.. **(مختار رحاب، 2022، ص212)**

النظرية المعرفية:

يمكننا القول أن بروز الاتجاه المعرفي قد كان بعد جملة الانتقادات التي وجهت إلى الاتجاه البنائي الوظيفي، وفي هذا المضمار يبرز الباحث الأنثروبولوجي العربي أحمد أبو زيد جملة من الانتقادات التي تم توجيهها للبنائية الوظيفية، فيرى أنه من العبث الاكتفاء بملاحظة جملة الانتقادات التي تم توجيهها للبنائية الوظيفية، فيرى أنه من العبث الاكتفاء بملاحظة سلوك الأفراد وتتبع علاقاتهم الظاهرة، أو الواقعية في المجتمع، لاستخلاص صورة بنائية راسخة وثابتة عن هذه العلاقات ومظاهر السلوك والنظم، لأن مثل هذا النوع من التحليل هو مجرد انعكاس لما يتصوره الباحث نفسه عن المجتمع، أو لما يدركه الناس أنفسهم عن واقعهم الاجتماعي أو لما يتصورونه عن هذه العلاقات والأوضاع والنظم والقيم.

ووفقاً لما يبق برز الاتجاه المعرفي في دراسة الثقافة، وكان من جملة الموضوعات التي اشتغل عليها أصحاب هذا الاتجاه، وهو ما

التصور وطريقة التفكير وأساليب إدراك الأشياء من قبل أفراد المجتمع، والبحث في المبادئ التي تكمن وراء هذا التفكير والتصور والإدراك والوسيلة التي يصلون بها إلى ذلك. (مختار رحاب، 2022، ص216)

11/ المحاضرة العاشرة: الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال.

تمهيد

تعد دراسة الأنثروبولوجيا محلياً أمر في غاية الأهمية، خصوصاً وأننا نطرح من خلالها ارتباطات الأنثروبولوجيا في الجزائر بأهداف المستعمر. والعنصر الموالي يتناول الموضوع بنوع من التفصيل.

إن نشأة الأنثروبولوجيا الوضعية لم تكن بنتائج أبحاثها في صالح الإنسان غير الأوربي أو الآخر كما أصبح يسمى، لقد وقع نوع من التقارب في البدايات ليتطور لاحقاً إلى تساند وتحالف بين نتائج البحوث الأنثروبولوجية والآلة الاستعمارية الإمبريالية، بل إلى درجة هيمنة الإرادات الاستعمارية برؤها السياسية التوسعية وبأجهزتها الآلية وجيوشها العسكرية على الأنثروبولوجيا كعلم، فأفرغ هذا العلم من محتواه وأبعاده وغيرت أهدافه، فأصبح عبارة عن أيديولوجيا وليس علماً، وهنا أصبحت الخطورة، ولاحقاً كانت البصمة أو وصمة الاستعمار في جسد الأنثروبولوجيا. **(مختار رحاب، 2022، ص296)**

حين وصل **"إرنست غلنر وكليفورد غيرتز"** إلى شمال أفريقيا في عام 1955 بالنسبة إلى الأول، وفي عام 1965 بالنسبة إلى الثاني، كانت المنطقة المغاربية، ومنذ مدة طويلة، موضوعاً لأدبيات ضخمة في مجال الإثنوغرافيا الفرانكوفونية بشكل خاص. كان المغرب الكبير جزءاً من

الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، ولذلك، شكل حقلاً مُفضلاً لإصدارات انطلقت مع غزو الجزائر في عام 1830. دَّون الفرنسيون من رجال سياسة وعسكر ورحالة، سواء من باب الحاجة المهنية والفضول أم بروح تبشيرية، انطباعاتهم ووجهات نظرهم حيال مجتمع شددوا على أنه ذو طابع بدائي وعنيف وخارج عن المألوف. أُنتجت أدبيات ضخمة، ذات قيمة غير متكافئة، من عدد كبير من المؤلفين، اصطبغت كلها بالعلاقة الاستعمارية الأبوية تارة، والمزدرية تارة أخرى. ...سأتوقف عند اثنين منهم، ذلك أنهما يمثلان الوجهة الابستمولوجية للإثنولوجيا الكولونيالية ومحدداتها الأيديولوجية والسياسية، إنهما "**روبير مونتان**" Robert (Montagne)، و "**جان سرفييه**" (Jean Servier). **(إرنست غلنر، كليفورد غيرتز، 2023، ص17)**

الأنثروبولوجيا الكولونيالية بوصفها تمثلات أكاديمية للمجتمع المستعمر:

فقد، احتلت فرنسا المغرب الكبير على ثلاث مراحل: الجزائر في عام 1830، تونس في عام 1880 والمغرب في عام 1912. تميزت المرحلة الممتدة بين عامي 1830 و1870 بهيمنة الاثنوغرافيين العسكريين الذين تصف كتاباتهم مجتمع **السكان الأصليين** بأنه مجتمع شرس ومتوحش، وانصب اهتمامهم على تحطيم عداوة السكان الأصليين للوجود الفرنسي. كانت

مقاومة الاحتلال شديدة وعنيفة، وكان انشغال العسكريين ينصب أساساً على معرفة سر قوتها من أجل هزيمتها، تلك كانت حقبة الاثنوغرافيين العسكريين الذين كانوا يجمعون المعلومات عن السكان المحليين بالتركيز على الجوانب التي يعتبرونها مُعادية للثقافة الأوربية، مثل المعتقدات الدينية والبنى القبلية. في نظرهم، كان المطلوب أولاً التوضيح للقادة العسكريين أن مهمتهم هي القضاء نهائياً على القبائل التي يُنظر إليها كتنظيمات حربية، ولأجل ذلك، تم إنشاء ما عُرف آنذاك بالمكاتب العربية، يسيرها ضباط تم تكليفهم بتحضير الأرضية لتثبيت أركان الإدارة المدنية. **(إرنست غلنر، كليفورد غيرتز، 2023، ص18)**

كان يجب أولاً العمل على دفع الأهالي إلى قبول الاستعمار والسماح بانتشار المستعمرين الأوربيين الذين وُزعت عليهم أراضي القبائل التي هُزمت عسكرياً. كانت هذه مُهمة الاثنوغرافيين العسكريين الذين جمعوا معلومات ضخمة عن البنى السوسيولوجية (القبائل، الأنساب، العائلات) والممارسات الدينية والزراعة وتربية الحيوانات والسكن والتراتبية الاجتماعية وغيرها. لقد صمموا خرائط طوبوغرافية للجزائر ليستطيعوا السيطرة على المجال الذي كان يمثل إطاراً معيشياً للسكان المحليين....لم يكن الأمر يتعلق بمعرفة المجتمعات المحلية لأهداف تنموية، بل لأجل نزع مُقومات المقاومة فيها. ولم تكن تخفي هذه الأدبيات الوصفية ذات

الاستخدام الإداري، أحكامها الأيديولوجية المسبقة من أجل تبرير الاستعمار ومواكبته. **(إرنست غلنر، كليفورد غيرتز، 2023، ص19)**

ومن أمثلة الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية التي كانت تهدف إلى ترسيخ الفرقة بين مكونات الشعب الجزائري، نجد تلك الأبحاث التي تركزت وتخصصت في منطقة من مناطق الوطن الجزائري ومن أمثلة ذلك الدراسات التي ركزت على دراسة منطقة القبائل بالجزائر، وسنأخذ مثالاً على ذلك من خلال إطلالة سريعة على ما كتبه "**أودولف هانوتو**" فمن أبرز ما كتبه هذا الأخير: "قواعد اللسان الأمازيغي" و "الشعر الشعبي لقبائل جرجرة" وكتاب "منطقة القبائل" وهذا المنتوج الأخير كان بمثابة موسوعة ثقافية واجتماعية لمنطقة القبائل، وأعماله تؤدي دور توثيق الثقافة الأمازيغية الشفهية وحفظها من الضياع والاندثار، غير أن المقصد الحقيقي من هذه الأعمال محاولة بث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وتفكيك اللحمة الوطنية، ومحاولة رسم تمايز واختلاف جذري داخل النسق الثقافي الجزائري وما يحمله من تنوع لا يختفي معه التجانس والتقارب. بل نظر إلى ثقافة المجتمع الجزائري على أنها تتسم بالجمود ولا حل للجزائري إن أراد التحضر إلا الاندماج في ثقافة فرنسا وأوروبا. **(مختار رحاب، 2022، ص306)**

وكذلك من بين الاثنوغرافيين الذين اشتغلوا بالحقل الجزائري أنثروبولوجياً نجد "**شارل فيرو**" Charle Feraud حيث كانت له العديد من الدراسات، ويمكننا في هذا السياق ذكر واحدة من دراساته التي لفتت انتباه السلطات الاستعمارية الفرنسية واستغلت نتائجها، هذه الدراسة كانت بمنطقة القبائل الشرقية من الجزائر، والتركيز على منطقة القبائل بالجزائر كانت له أهداف كولونيالية بحتة، وذلك من أجل ضرب وحدة المجتمع الجزائري، عمد "**فيرو**" من خلال دراسته إلى محاولة إبراز التناقضات الموجودة بين السكان من أجل العزف عليها وانتهاج سياسة فرق تسد الاستعمارية...وإلى جانب "**فيرو**" اشتغل بمنطقة القبائل اثنوغرافيين آخرين وركزوا على دراسة الأعراف، الدين، القضاء، ومن بين هؤلاء "**هانوتو**" و"**لوتورنو**"، كذلك نجد أعمال "**بوسكي**" (Bousquet 1950، "**هاكون كامبردون**" Hacon Campredon الذي قدم أطروحته حول الأعراف القبائلية، بالإضافة إلى ما أنجزه "**مارسي**" G. Marcais حول القانون العرفي ببلاد القبائل. **(مختار رحاب، 2022، ص306-307)**

خلاصة

نستنتج مما سبق أن الأنثروبولوجيا بالجزائر قبل الاستقلال كانت خادمة لنوايا المستعمر في فهم الثقافة الجزائرية وفهم كذلك الفرد الجزائري ليسهل اختراق المجتمع والتحكم فيه.

11/ المحاضرة الحادية عشر: منهج البحث والتقنيات في الأنثروبولوجيا.

تمهيد

تعتمد الأنثروبولوجيا باعتبارها حقل علمي مستقل له موضوع ومنهج خاص به، على أدوات وتقنيات بحثية متنوعة، ذات طابع كيفي، وهذه الجزئية من المحاضرة تسعى لإبراز أهم التقنيات البحثية ضمن هذا المجال بنوع من التفصيل.

أولاً: الإثنية المنهجية.

الاثنوميثودلوجيا (المنهجية الشعبية) ترتبط بعالم الاجتماع "هـ. جارفنكل" الذي تأثر بفلسفة الظواهر في توجيه التحليل الاجتماعي إلى دراسة بناء الواقع اليومي والتفاعل الاجتماعي. وترى الاثنوميثودلوجيا أن أهداف الفاعلين الاجتماعيين هي المحور، وتدرس كيف ينشأ الكلام والتنظيم الاجتماعي من التفاعل الاجتماعي، والذي يعتبر العملية التي يقوم الفاعلون من خلالها بتحديد أهدافهم والسعي وراءها وتحقيقها. وهكذا يدرس هذا الميدان المناهج التي عن طريقها يصل الفاعلون إلى فهم وانتاج أبنية التفاعل الاجتماعي. ولا تعد المعايير الاجتماعية التي تعبر عنها الكلمات انعكاساً لنظام اجتماعي أخلاقي محدد، بقدر ما هي إنجازات مستمرة في عملية صياغة الأشخاص (الفاعلين) للتعريفات المرغوب فيها للنظام الاجتماعي. وتظهر دراسة "فايدر" Weider للغة السجون أن الشفرة التي كان يستخدمها المسجونون كانت طريقة للاقناع والتبرير

وليست انعكاساً لطريقة حياة منظمة. وقد استفادت الاثنوميثودلوجيا من كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وكذلك التحليل اللغوي ما أبرز منجزاتها العملية فقد تحققت في مجال تحليل المحادثة. **(شارلوت سيمور- سميث، 1998، ص67)**

ثانياً: الوظيفية.

...المذهب الوظيفي لا يهتم بالبحث عن أصل الثقافة ولا كيف تنتشر ولا غيرها من الموضوعات التي سنبحثها، وإنما يهتم بدراسة ما يسمى باسم ديناميات الثقافة، أي كيف تعمل الأجزاء المختلفة التي تُكون في مجموعها ثقافة ما، فهو يبحث في الوظائف التي تؤديها النظم المختلفة داخل الثقافة الواحدة، ويُبين الوظائف التي تقوم بها السمات الثقافية ويدرس هذه السمات بعضها ببعض وكيف تقوم كل منها بوظائفها، ثم يقارن بين السمات الثقافية المتشابهة الموجودة بين الثقافات المختلفة والوظائف التي تقوم بها داخل تلك الثقافات. وزعيم هذه المدرسة "**راد كليف بروان**" الانجليزي (1881-1955) ومن أعضائها "**برنسلاف مالينوفسكي**" (1884-1942) الانجليزي الجنسية البولندي الأصل. **(شحاتة سعفان، د. سنة، ص118-119)**

ثالثاً: البنيوية.

حدد "**راد كليف براون**" مفهوم البنية بأنها هيئة مكونة من عدة عناصر منتظمة لتشكل هذا الكل، كما أنها تتميز بخلق عدة علاقات بين

الأفراد ببعضهم البعض بشكل مستمر (كما هو الشأن بالنسبة لبنية القرابة)، إضافة إلى أنها تميز بين الأفراد والجماعات عن طريق أدوارهم الاجتماعية. **(امحمد مهدان، 2013، ص74)**

ولا يمكننا الحديث عن البنيوية دون ذكر "**كلود ليفي ستراوس**" باعتبار البنيوية تنسب إليه بشكل أساسي "وهو فيلسوف وأنثروبولوجي فرنسي ولد عام 1908 ولا يزال على قيد الحياة، ولقد تأثر بعالم اللسانيات (**جاكوبسون**) (عالم لسانيات روسي). لقد طور البنيوية في الأنثروبولوجيا وذلك من خلال الكثير من أعماله حيث طبق المنهج التحليلي (البنيوي) بنجاح من خلال دراسة الأساطير في المراحل التالية:

1964- 1971- 1985- 1991، ومن خلال دراسته للعلاقات العائلية عام 1949، وبعد ذلك نجده قد اتجه إلى دراسة التجمعات البشرية التي نعرف أنها تسمى **بعلم الاثنيات** اليوم، وكان ذلك بين عامي 1958 و1962 إذ نجده في هذا العلم قد اعتمد على المقارنة من خلال أنظمة الزواج والعلاقات العائلية ومن خلال المقارنة بين مختلف القبائل والتجمعات التي بحث فيها." **(مصطفى تيلوين، 2017، ص101)**

ويظهر الجانب البنيوي في نظريته من خلال ما لاحظه من مبادئ بسيطة وبأعداد محدودة تحكم التجمعات البشرية، وأن كل تجمع من هذه التجمعات البدائية تحكمه ثلاث بنيات وتسمى كذلك بالقواعد وهي: بنية النسب، بنية السكن أو بنية المكان، وبنية الميراث وعلى كل عنصر من

أفراد هذه التجمعات التي تشكل بنية أن لا يخرج عن هذا النسق؛ فهو مفروض فرضاً إلزامياً على هذه التجمعات وعلى كل أفرادها. **(مصطفى تيلوين، 2017، ص102)**

رابعاً: تقنيات البحث الميداني.

تهتم الاثنولوجيا- في جوانبها النظرية (في مقابل جوانبها الوصفية البحتة)- أكبر الاهتمام بمشكلة تفسير أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين الثقافات الإنسانية. وقد يتناول الباحث تلك المشكلة تاريخياً، فيحاول أن يتلمس في تاريخ شعب معين - وخاصة في اتصاله أو عدم اتصاله بشعوب أخرى- أسباب أوجه الشبه والاختلاف. وقد يعمد إلى المقارنة المنهجية المنظمة بين الثقافات وبعضها ليتوصل إلى تحديد تلك الثقافات، وكيفية أدائها لوظائفها. وقد تقوده مثل تلك الدراسات إلى تفسيرات لأوجه التشابه الواسعة الانتشار وإلى أوجه الاختلاف النوعية الخاصة. كذلك قد تساعد الدراسات المقارنة للثقافات الإنسانية - ماضيها وحاضرها- على تفسير العمليات التي تغيرت بمقتضاها الحضارات البشرية في الشكل، وتوصلت من خلالها إلى هذا التنوع المعقد الذي نلاحظه اليوم. **(محمد الجوهري، عليا شكري، 2004، ص22-23)**

يشير **البحث الإثنوغرافي** عادة إلى دراسة الأفراد والجماعات ميدانياً عن طريق المعايشة المباشرة على مدى فترة زمنية محددة

باستخدام "الملاحظة التشاركية" أو "المقابلة الشخصية" بقصد التعرف على أنماط السلوك الاجتماعي.

ويهدف البحث الإثنوغرافي إلى اكتشاف المعاني الكامنة وراء الفعل الاجتماعي عن طريق انخراط الباحث المباشر بالتفاعلات التي يتكون منها الواقع الاجتماعي للجماعة المدروسة. وقد تمتد الفترة التي يعايش فيها العالم الاجتماعي جماعة أو مؤسسة أو مجتمعاً محلياً ما، إلى عدة أشهر، وربما إلى سنوات، لملاحظة الأنشطة اليومية والأحداث، وايجاد تفسيرات لما يتخذ من قرارات أو ما يصدر عن الجماعات من أفعال وتصرفات، سواء ما ينجم منها عن البيئة الطبيعية مثل المناطق الجبلية أو الصحراوية أو النائية، أو عن سياقات اجتماعية معينة مثل معايشة الفئات المنحرفة أو المشتبه بانخراطها في نشاطات جرمية. **(أنتوني غدنز، 2005، ص681)**

وتُقدم الاثنوغرافيات الناجحة ثروة من المعلومات والبيانات حول الحياة الاجتماعية، وتتفوق في هذا المجال على أساليب البحث الأخرى. فهي تدرس الجماعة البشرية "من الداخل"، ومن ثم تستطيع تقديم نظرة ثاقبة على أنشطتها ومقاصد الأفعال والقرارات التي تتخذها. كما يمكن هذا النوع من الدراسات أن يراقب ويدون ويحلل السيرورة العملية الاجتماعية التي تتمفصل وتتقاطع مع الوضع الاجتماعي المدروس. ويُشار

إلى البحوث الإثنوغرافية عادة بوصفها واحدة من أنواع "**الدراسات النوعية**"، لأنها تعنى في المقام الأول بالفهم الذاتي للظاهرة أكثر مما تهتم بالبيانات الإحصائية الرقمية. كما أن البحث الإثنوغرافي يعطي الباحث قدراً واسعاً من الحرية والمرونة والقدرة على التكيف مع الظروف والأوضاع الطارئة، وأخذ زمام المبادرة لتوجيه الدراسة لمتابعة البحث وفق التطورات المستجدة. غير أن للعمل الإثنوغرافي الميداني حدوداً تقيده، ومخاطر منهجية قد تؤثر في ما يتوصل إليه من تحليلات ونتائج. فإن مجاله يقتصر على دراسة مجموعات صغيرة وقليلة من الجماعات، كما أن العمل نفسه يعتمد إلى حد بعيد على مهارة الباحث المهنية وقدرته على كسب ثقة أفراد الجماعة، وقد يقع الباحث من ناحية أخرى، تحت تأثير التصاقه وتعايشه ومشاركته الوجدانية للجماعة إلى حد يضيع معه منظوره المنهجي العلمي في دراسة الظاهرة باعتباره مراقباً موضوعياً محايداً. **(أنتوني غدنز، 2005، ص681)**

تتضمن منهجية الاثنوغرافيا استراتيجيتين بحثيتين: الملاحظة غير المشاركة والملاحظ المشاركة، في المرحلة الأولى يلاحظ الباحث المواضيع "على بعد مسافة معينة" بدون أن يتفاعل معها. إن هؤلاء الذين يستخدمون هذه الاستراتيجية لا يهتمون بالبحث والتحري عن المجال الرمزي، ويتأكدون من أنهم لا يتدخلون في شئون أفعال وحركات المواضيع حتى لا يؤثرون في مجرياتها وتصرفاتها، هناك عدة مواقف وسيطة بين

الحدين الأقصيين لملاحظة المشاركين وملاحظة غير المشاركين. **(جيامبيترو جوبو، 2014، ص28)**

على العكس من ذلك، فإن ***الملاحظة المشاركة لها الخواص والصفات المميزة*** التالية:

1- ينشئ الباحث علاقة مباشرة مع من يقومون بأعمال تأخذ في اعتبارها أفعال وردود أفعال الأفراد.

2- الإقامة والبقاء في بيئتهم الطبيعية.

3- بالتفاعل معهم والمشاركة في الإجراءات التفصيلية الروتينية في حياتهم اليومية.

4- معرفة مبادئهم وقواعد سلوكهم (أو جزء منها على أقل تقدير) من أجل فهم معنى أفعالهم. **(جيامبيترو جوبو، 2014، ص28)**

إن منهجية الاثنوغرافيا تعطي أولوية للملاحظة كمصدر رئيسي للمعلومات. **(جيامبيترو جوبو، 2014، ص28)**

هكذا تتدخل الاثنوغرافيا في المرحلة الأولى من العمل الأنثروبولوجي، المرحلة "الميدانية"، بحيث أنه عندما نتكلم عن "منهج إثنوغرافي"، نقصد مجمل المناهج التجريبية – أو الطرائق- التي بواسطتها يقيم الاثنولوجي في حالة البحث الميداني العلاقة ذات المردود العلمي

الأكثر بينه وبين ميدانه. **(بيار بونت، ميشال إيزار وآخرون، 2011، ص24)**

بهذا الخصوص يصبح التحدث عن "**منهج إثنوغرافي**" بالمفرد مخادعاً بعض الشيء: إن تنوع المجتمعات وحالات البحث الميداني من جهة، وأهمية شخصية الباحث في إقامة علاقته بالميدان من جهة أخرى، يمنعان إمكانية ذكر وجود - وملاءمة- نوع من منهجية إجمالية تكون مسيرتها قابلة للتعريف الدقيق، مع أن ذلك لا يتناقض مع كون جمع بعض المعلومات يتطلب بوضوح اعتماد منهج بالغ الدقة، وحتى مشفر أحياناً. في السياق الغامض للمنهج الإثنوغرافي، يمكننا إذا فصل "تقنيات للبحث الميداني": فإجراء مسح للأراضي، وجمع أنساب أو اصطلاحات القرابة، ودراسة نظام زراعي، ولا نأخذ هنا إلا بعض الأمثلة، هي نشاطات ميدانية خاضعة لاستعمال بعض من هذه التقنيات. **(بيار بونت، ميشال إيزار وآخرون، 2011، ص24)**

وإذا ما انتقلنا إلى الدراسة الميدانية: "فيقصد بها البحوث التي يقوم بها الدارس في علم الاجتماع في منطقة إثنوجرافية أو في مجتمع محلي. وفي الأنثروبولوجيا المعاصرة لم تعد هذه المنطقة الإثنوغرافية مقصورة بالضرورة على المجتمع المحلي التقليدي القبلي أو القروي، بل يمكن أن تغطي دراسات المجتمعات الحضرية، أو الصناعية، أو غيرها التي

يختارها الباحث لدراستها دراسة مركزة. كما استخدم نفس الاتجاه في دراسة الثقافات الفرعية وفي إجراء البحوث على مؤسسات داخل المجتمع الصناعي الحديث. ففي حين كان يقال في الماضي أن الأنثروبولوجيا هي دراسة الشعوب البدائية والثقافات القبلية الغربية وغير المعروفة، والمجتمعات المحلية القروية، لم يعد يصح اليوم تعريف البحوث الأنثروبولوجية المعاصرة وفقاً لهذا المعيار، وإنما أصبحت تتميز باستخدام المناهج الأنثروبولوجية المتميزة في العمل الميداني وفي التحليل. والحقيقة أن الحدود بين العلوم أصبحت غائمة إلى حد كبير في مجال دراسة المجتمع الصناعي والحضري الحديث، وذلك بسبب ظهور قضايا نظرية ومنهجية جديدة بفضل التعاون بين أكثر من تخصص، وتبادل الخبرات بين التخصصات المختلفة. ويمكن أن نلحظ ثمرة هذا التعاون بين التخصصات في الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمعات التقليدية القبلية والقروية، حيث يتزايد اعتماد علماء الانثروبولوجيا المعاصرين على نظريات علوم التاريخ والاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها وتفيد منها في تقديم تفسير ملائم للأنساق الاجتماعية الثقافية المحلية والعلاقات المتبادلة فيما بينها من ناحية، وبينها وبين أبنية القوة القومية والعالمية من ناحية أخرى." **(روبرت إيمرسون وآخرون، 2010، ص13)**

والأداة الرئيسية في الدراسة الميدانية (الاثنوجرافية) هي الملاحظة عموماً، **والملاحظة بالمشاركة** بشكل خاص، والملاحظ المشارك - كما توحي

التسمية- هو باحث يصبح عضواً في الجماعة التي يلاحظها، بعكس الملاحظ غير المشارك الذي يراقب الجماعة عن كثب دون أن ينخرط في مناشط حياتها اليومية. ويشارك الباحث في نشاط الجماعة بدرجة تتراوح بين قطبي المشاركة التامة وعدم المشاركة. فإما أن يتظاهر بأنه عضو في الجماعة أو يقدم نفسه إلى المجتمع الذي يدرسه على أنه باحث علمي، ويأمل أن تقبله الجماعة كعضو فيها... ويجب أن نلاحظ أنه كلما امتد وجود الباحث في الميدان كلما زادت درجة مشاركته في أسلوب حياة الجماعة. وكقاعدة عامة. فإن الباحث الذي يقوم بالملاحظة المشاركة يربط نفسه بالجماعة التي يدرسها لفترة معقولة من الوقت تتراوح بين عدة أسابيع أو شهور وعدة سنوات. . **(روبرت إيمرسون وآخرون، 2010، ص14)**

وفي العنصر الموالي سنفصل أكثر حول تقنيات البحث في المجال الانثروبولوجي.

وعن تقنيات البحث في حقل الأنثروبولوجيا، فيمكن الانطلاق فيها من خلال تعريف التقنيات وفق ما يلي:

التقنيات Les Techniques: إن كل بحث أو تطبيق ذي طبيعة علمية في العلوم الاجتماعية كما في العلوم عامة، يجب أن يشمل استعمال طرائق إجرائية دقيقة، محددة جيداً، قابلة للنقل، قابلة

للتطبيق من جديد في الشروط نفسها، ملائمة لنوع المشكلة والظواهر موضوع البحث. هذه هي التقنيات. إن اختيارها مرتبط بالهدف المقصود، المرتبط هو الآخر بمنهج العمل. **(مادلين غراويتز، 1993، ص11)**

إن التقنيات ليست إذاً إلا أدوات يضعها المنهج في خدمة البحث، وينظمها لتحقيق هذا الهدف. إنها محدودة العدد ويشترك فيها معظم العلوم الاجتماعية. **(مادلين غراويتز، 1993، ص11) وتقنيات البحث هي** وسائل تسمح بجمع المعطيات من الواقع، فإذا كانت المناهج النموذجية تتضمن توجهات عامة فيما يخص طرق معالجة موضوع دراسي معين، فإن التقنيات تشير إلى كيفية الحصول على المعلومات التي بإمكان هذا الموضوع أن يقدمها. وتمثل هذه التقنيات الوسائل الأساسية لتقصي الواقع الاجتماعي. **(موريس أنجرس، 2004، ص107)** وفي المجال الأنثروبولوجي سيتم التركيز على ذكر بعض التقنيات الهامة وفق ما يلي:

01- الملاحظة والملاحظة بالمشاركة:

يحدد بعض علماء المناهج الملاحظة بأنها العملية التي عن طريقها يمكن أن يشاهد الباحث المبحوث أو يشارك في الملاحظة سواء عن بُعد أو قرب لطبيعة دراسة الظاهرة مع الاستعانة ببعض الأساليب البحثية ودراستها بصورة دقيقة. كما قد يزداد استخدام الملاحظة حسب نوعية العلم مثلا يمكن القول الملاحظة الفلكية، الملاحظة البيولوجية، الملاحظة

الاجتماعية وهكذا، وتعطي الملاحظة مجموعة من المزايا التي تعزز استخدامها بصورة أكثر عن أدوات جمع البيانات الأخرى. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، السيد رشاد غنيم، 2008، ص158)**

ولاسيما أنها تتيح للباحث ملاحظة السلوك أو مظاهر التغير المستمر الذي يحدث على الظاهرة، كما يتم تسجيل ما يلاحظه الباحث بصورة مستمرة، وفي بعض الأحيان يتم الجمع بين الملاحظة والمقابلة في نفس الوقت، وخاصة عندما يسعى الباحث إلى إلقاء أسئلة معينة على المبحوث ويشاهد في نفس الوقت مظاهر التغير التي تطرأ على سلوك المبحوث ذاته. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، السيد رشاد غنيم، 2008، ص158)**

وجاءت عملية تصنيف الملاحظة من قبل بعض علماء المناهج إلى نوعين أساسيين هما:

أولاً: الملاحظة البسيطة، ويتم عن طريقها مشاركة الباحث الجمهور أو مجتمع البحث أو الظاهرة المراد دراستها ولا يشارك أو يتدخل ذاتياً فيما يلاحظه أو يشاهده في الواقع.

ثانياً: الملاحظة المنظمة، وهي تتم عن طريق تحديد مقاييس أو ضوابط معينة يتم عن طريقها قيام الباحث بالملاحظة بصفة دورية حتى يتحقق ما يراد دراسته أو بحثه بالضبط. **(عبد الله محمد عبد الرحمن، السيد رشاد غنيم، 2008، ص158)**

وهناك نوع من أنواع الملاحظة والتي تشمل **الملاحظة بالمشاركة** Participant Observation، والتي عن طريقها يستطيع الباحث أن يلاحظ روتين الحياة اليومية، ويحاول الباحث عن طريقها ملاحظة الأفعال والسلوكيات والأنشطة العادية... **(عبد الله محمد عبد الرحمن، السيد رشاد غنيم، 2008، ص159)**

كما استفاد علماء الاجتماع كثيراً من خبرات العديد من علماء العلوم الاجتماعية الأخرى، مثل **الأنثروبولوجيا** نظراً لقيام الدراسات الأنثروبولوجية على استخدام الملاحظة بمختلف أنواعها سواء كانت بسيطة أو منظمة أو أيضاً ملاحظة **عن طريق المعايشة** والتي قد تستمر سنوات طويلة، يتم عن طريق وجود الباحث ومعايشته للمجتمع وأفراده، وربما يتقمص **أدوار وظيفية** أو مهنية معينة داخل هذا المجتمع، وأن يطلع بصورة كبيرة على ثقافات العامة والفرعية. ولعل من أهم الدراسات التي اكتسب شهرة كبيرة في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية مثل دراسات **مالينوفسكي**، وملوريان زنانيكي، **وراد كليف بروان، وايفانز بريتشارد**... **(عبد الله محمد عبد الرحمن، السيد رشاد غنيم، 2008، ص159)**

2- المقابلة:

إن ما يميز المقابلة هو كونها بالأساس مسعى كلامي محادثتي بين الباحث والمبحوث في إطار تفاعلي معين، حيث يجب أن يكون الباحث مع

المبحوثين ويتبادل معهم أطراف الحديث حول مسألة أو مسائل ما، حيث تعطي للمبحوث حرية معينة في الإدلاء برأيه والتعبير عن تمثلاته لهذه المسائل، من دون أي توجيهية في الإجابة... **(سعيد سبعون، حفصة جرادي، 2012، ص173)** ويمكن أن نعرفها بأنها **عملية تقصي علمي تقوم على مسعى اتصالي كلامي من أجل الحصول على بيانات لها علاقة بهدف البحث. (سعيد سبعون، حفصة جرادي، 2012، ص173)**

لما ينتهي الباحث من تصميم دليل المقابلة... ينطلق في طرح الأسئلة على هذا المبحوث، وهنا أيضاً يفرض بروتوكول إجراء المقابلة اتباع بعض التوصيات التي طالما تشير إليها مؤلفات منهجية البحث في العلوم الاجتماعية منها: **(سعيد سبعون، حفصة جرادي، 2012، ص178-179)**

- إعطاء الحرية التامة للمبحوث للإدلاء عن رأيه حول المسألة التي عرضها عليه.

- أن يعمل الباحث على توفير الجو الملائم من حيث المكان الذي يختاره لإجراء المقابلة، بعيداً عن التأثيرات الخارجية من ضجيج وصخب أو كل ما يجعل المبحوث يشرد عن المسألة التي عرضت عليه للإجابة عنها.

- أن يختار الباحث في صياغة أسئلته عبارات تجعل المبحوث يعتقد أن رأيه يكتسي أهمية بالنسبة إلى المبحوث مثل: أريد أن تحدثني الآن عن... وكذلك ما الذي يعنيه (أو يمثله) بالنسبة إليك كذا أو ذاك...

- الاصغاء جيداً لإجابة المبحوث، وهذا ما يجعله يعرف إن كان المبحوث "انحرف" في كلامه ليرجعه إلى جادة ما هو مطلوب من السؤال أو تعليمه الإجابة.

- يسمح الإصغاء أيضاً للباحث باختيار اللحظة المناسبة لما يعرف بإعادة الانطلاق (La Relance): تمثل إعادة الانطلاق التدخل النموذجي في مقابلة البحث لأنها تساعد في إعادة إرجاع المستجوب على خطابه وتدفعه إلى إعطاء تفسيرات لأفكاره وتوضح جانب الخطاب المشار إليه (المُعارض) بصفة غير مباشرة من طرف المتدخل...

- من الأفضل أن يلجأ الباحث إلى استعمال آلة تسجيل لما يقوله المبحوث وذلك بعد أن يطلب منه الإذن ويطمئنه أن ما يقوله سيتم استعماله لأغراض علمية بحثه ويعاهده بالسرية التامة.

خلاصة

كان هذا عرض بسيط لمنهجيات البحث الأنثروبولوجي وتقنياته، والذي أردنا من خلاله إبراز أهم التقنيات التي يستخدمها الأنثروبولوجي في اطار دراسته الحقلية الميدانية.

12/ المحاضرة الثانية عشر: علم الآثار (النشأة والتطور).

تمهيد

يعد علم الآثار فرع علمي هام يبحث في البقايا ومخلفات الإنسان، ونظراً لأن الأنثروبولوجيا تبحث عن أصل الإنسان خصوصاً الإنسان قبل ظهور الكتابة، كان لزاماً علينا التطرق لعلم الآثار لدوره في اكتشاف الثقافة الإنسانية وخصائها.

إذا نظرنا إلى مصطلح الأركيولوجيا Archaeilogy من الناحية اللغوية يمكن ترجمته حرفياً إلى Archeo أو Archaeo وتعني قديم أو بائد أو منقرض ثم Logy وتعني علم، وبهذا يكون معنى المصطلح في مجمله العلم المختص بدراسة العاديات أو الآثار القديمة. **(نادية أحمد محمد، 2003، ص370)**

واصطلاحا، علم الآثار هو علم يهتم بالأشياء القديمة، وبالخصوص الفنون والآثار القديمة. **(مصطفى تيلوين، 2017، ص44)**

وعلم الآثار Archeaology هو جزء لا يتجزأ من علم الإنسان، وعلم الإنسان Anthropology ميدان يلتقي فيه كل من له اهتمام بالإنسان... **(علي حسن، 1993، ص9)**

إن علم الآثار كجزء من علم الإنسان يهتم أولاً وأخيراً بدراسة ثقافة الإنسان القديم من تلك الجوانب من الثقافة التي في الإمكان

التوصل إلى معرفتها عبر الأزمان البعيدة، وبالطبع فنسبة البعد أو القرب في الزمن الذي يدرسه علم الآثار لها تأثير مباشر على نوع واختلاف المادة الثقافية التي يتوصل إليها العلم من خلال البحث. **(علي حسن، 1993، ص11)**

وتهدف الأركيولوجيا إلى إعادة رسم صورة كاملة بقدر الإمكان لماضي الحياة الإنسانية من خلال جميع الأدلة المتاحة، متبعة في ذلك أسلوب المحقق Détective الذي يهتم بكل شيء حتى لو بدى تافهاً أو سطحياً، كما أنها تستعين بأساليب ومناهج من العلوم الأخرى وذلك بعد تطويعها لتلائم طبيعة المادة الأركيولوجية. **(نادية أحمد محمد، 2003، ص372)**

إن علم الآثار في جوهره قصة الإنسان كما تظهرها الأشياء التي تخلفت عنه وهو بالدرجة الأولى البحث عن المعرفة وليس مجرد البحث عن الأشياء. **(علي حسن، 1993، ص15)** حيث تهتم اركيولوجيا ما قبل التاريخ بوصف وتحليل الأنساق السوسيوثقافية البائدة، وهي تتفق في أهدافها مع فروع الأنثروبولوجيا الأخرى، تلك الأهداف التي ترمي إلى تفسير كل من التطور الفيزيقي والثقافي للإنسان. **(نادية أحمد محمد، 2003، ص374)**

إن وجود الإنسان ثقافياً وكذلك تاريخه الثقافي في نظر علماء الآثار يبدأ من اللحظة التي استعمل فيها الإنسان أو صنع من مادة خام، أداة تعينه على مواجهة متطلبات الحياة الأساسية من معيشته أو إسكان أو أي نشاط بشري آخر. **(علي حسن، 1993، ص11)**

إن البقايا الأثرية للبيئة التي كتبت تحت تأثيرها الوثائق نفسها قد أكملت إظهار التطور البشري وتكييفه لتأثيرات البيئة، وباختصار فإن الكتابات القديمة من ناحية ودراسة البقايا المادية من ناحية أخرى هما مصدران متساويان تقريباً للحصول على المعلومات الخاصة بحضارة من الحضارات. **(علي حسن، 1993، ص15-16)**

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن العصور التاريخية التي نؤرخ لها وتبدأ بالكتابة قد سبقتها فترة طويلة لم تكن خلالها الكتابة معروفة، وهي فترة تكوينية في التقدم البشري نمت معرفتنا لها من نتائج علم الآثار المستند على الحفر والتنقيب فقط. **(علي حسن، 1993، ص16)**

والأركيولوجيا الأنثروبولوجية قديمة قدم الأنثروبولوجيا وتتعامل مع شتى البقايا الإنسانية القديمة في أي مكان من العالم. وعالم الأركيولوجيا ما هو إلا أنثروبولوجي ينقب عن البقايا المادية للثقافات الماضية ويحاول من خلالها إعادة تركيب تاريخ الإنسان منذ الماضي

البعيد، وتحديد الأنساق الثقافية في العصور والمناطق المختلفة من العالم. **(نادية أحمد محمد، 2003، ص375)**

فالأركيولوجيا هي أحد الأساليب الأساسية التي تستعين بها الأنثروبولوجيا في دراسة التجربة الثقافية لإنسان ما قبل التاريخ. فهي العلم الذي يدرس تاريخ الثقافة (Culture History) والعمليات الثقافية (Culture Processes) (التي تضير إلى العلاقات الدينامية الفعالة بين مكونات النسق وبين البيئة وهي دراسة حديثة ترجع إلى العقد الماضي فقط) وكذلك يدرس أساليب الحياة في الماضي (Past Life Ways) من خلال البقايا المادية، على اعتبار أن كل المجتمعات الإنسانية يتخلف عنها شواهد وأدلة لا تعكس النواحي المادية فقط ولكنها تشير أيضاً إلى السلوك والمعتقدات والنظم الاجتماعية، وهذه جميعاً موضوعات اهتمام للأنثروبولوجيا. **(نادية أحمد محمد، 2003، ص375- 376)**

كان علم الآثار وصفاً واقعاً قبل أن يصبح علماً، والالتفاف نحو الماضي والرغبة الحارة في معرفة الحضارات المنقرضة، والاهتمام بأشياء وأعمال فنية من العصور القديمة، كل هذا يشكل الخطوة الأولى في غياب أية طريقة أو أسلوب. وبهذا المعنى يمكن القول أن "**هوميروس**" هو أب علم الآثار. **(جورج ضُو، 1982، ص18)**

خلاصة

وعليه فإن علم الآثار قدم للأنثروبولوجيا مخزون معرفي من خلال البقيا الإنسانية (الأدوات والأواني القديمة، الآثار...) استطاعت من خلالها الأنثروبولوجيا فهم نمط الثقافات السابقة وخصائصها ومراحل تطورها.

13/ المحاضرة الثالثة عشر: المدارس والفروع والتخصصات والعلوم المساعدة لعلم الآثار.

تمهيد

استند علم الآثار في سياقات بحثه الأثري على جملة من الفروع بغية تحقيق فهم أعمق ودقيق للجوانب الاجتماعية والثقافية الإنسانية وهذا ما سنوضحه.

يشمل علم الآثار عدة فروع يندمج بعضها في دراسات أخرى كالتاريخ وعلم الإنسان Anthropology وأقدم ما صنعته يد البشر شظايا الصواب في العصر الحجري القديم Palaeolithic age، وقد تطورت تدريجاً في سبيل الإتقان ومن ثم كانت لها قيمة كبرى في تعيين العصور.**(جارونر، 1936، ص1)**

ولا ريب أن علماً فسيح الأرجاء واسع الميدان كعلم الآثار لا بد وأن تختلف فروعه في الأغراض والأساليب ومن ثم يتعذر التعميم في دراسته ويجمل بحث فرعه المختلفة كل على حدى. **(جارونر، 1936، ص6)**

وهناك تقسيم وضعنه جامعة لندن تحت إشراف الخبراء الأخصائيين وهو يفي بالحاجة على الرغم من أنه ليس جامعاً شاملاً. وعلى كل حال فإن البحث العلمي في علم الآثار مقسم إلى ثمانية فروع: **(جارونر، 1936، ص6-7)**

1- آثار ما قبل التاريخ.

2- آثار أوربا الغربية.

3- الآثار المصرية.

4- الآثار الآشورية.

5- الآثار اليونانية والرومانية.

6- آثار العصر المسيحي القديم والعصور الوسطى.

7- آثار عهد النهضة.

8- الآثار الشرقية.

وإذا فهمنا أن المقصود بالآثار الأشورية هي آثار بلاد ما بين النهرين، وأن الآثار الشرقية يراد بها أن تشمل آثار الصين والهند وفارس، فإن هذا التقسيم يمكن اعتباره شاملاً للموضوعات الرئيسية في دراسة الآثار. **(جارونر، 1936، ص7)**

خاتمة:

ختاماً، نصل للقول أن مقياس مدخل إلى الأنثروبولوجيا يعد من ضمن المقاييس الأساسية لدارس في مجال العلوم الاجتماعية، وهدفنا من خلاله إلى عرض مفصل لأهم جوانبه الأساسية من ماهية الأنثروبولوجيا وغاياتها، والمراحل التاريخية لتطور هذا الحقل وكذلك التيارات البارزة ضمن هذا الحقل.

ويبقى الهدف العام هو تبسيط المعلومات لطالب حتى يستطيع تحقيق فهم هذا المقياس بشكل مقبول. وتحقيق تحصيل معرفي فيما بعد.

- قائمة المصادر والمراجع:

- حسن شحاته، زينب النجار، (2003)، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، مراجعة حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة.

- إرنست غلنر، كليفورد غيرتز، (2023)، عالماً أنثروبولوجياً في المغرب الكبير، ترجمة: لهواري عدي، نوري دريس، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت.

- أرنولد توينبى، (1966)، الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة لمعى المطيعى، مكتبة الأنجلو المصرية، د. بلد.

- أليكس إنكلز، (1983)، **مقدمة في علم الاجتماع**، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، دار المعارف، ط6، القاهرة.

- أنتوني غدنز، (2005)، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)، ترجمة: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت.

- بيار بونت، ميشال إيزار وآخرون (2011)، منهج الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، ط2، بيروت- لبنان.

- توماس هيلاند إريكسن، وفين سيفرت نيلسن، (2014)، تاريخ الأنثروبولوجيا، ترجمة: عبده الريس، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة.

- جوردن مارشال، (د. سنة)،موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول، ترجمة: محمد محمود الجوهري وآخرون، المشروع القومي للترجمة، ط1، المركز المصري العربي.

- جيامبيترو جوبو، (2014)، إجراء البحث الاثنوجرافي، ترجمة: محمد رشدي، أحمد زايد، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة.

- حسين فهيم، (1986)، قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، سلسلة كتب- موريس أنجرس، (2004).

- روبرت إيمرسون وآخرون، (2010)، **البحث الميداني الإثنوجرافي في العلوم الاجتماعية**، ترجمة هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة.

- سعيد سبعون، حفصة جرادي، (2012)، **الدليل المنهجي في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع**، دار القصبة للنشر، د. ط، الجزائر.

- سمير سعيد حجازى، (د. سنة)، معجم مصطلحات الأنثروبولوجيا والفلسفة وعلوم اللسان والمذاهب النقدية والأدبية، مكتبة شمس المعرفة، دار الطلائع، د. بلد.

- شارلوت سيمور. سميث، 2009، موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، ترجمة نخبة من الأساتذة تحت إشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، ط2، القاهرة.

- شحاتة سعفان، (د. سنة)، علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات مكتبة العرفان، د. ط بيروت.

- طه باقر، 2011، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة- حضارة وادي النيل، الجزء الثاني، ط1، دار الوراق للنشر المحدودة، بيروت، لبنان.

- عبد الله محمد عبد الرحمن، (د. سنة)، **مبادئ علم الاجتماع**، دار الطباعة الحرة، الاسكندرية.

- عبد الله محمد عبد الرحمن، السيد رشاد غنيم، (2008)، **مدخل علم الاجتماع**، دار المعرفة الجامعية، ط1، الاسكندرية.

- عيسى الشماس، (2004)، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مكتبة منشورات اتحاد الكتاب العرب، د. ط، دمشق.

- مادلين غراويتز، (1993)، **منطق البحث في العلوم الاجتماعية**، ترجمة سام عمار، المركز العربي للتعريب والتأليف والنشر، مطبعة طربين، ط1، دمشق.

- محمد عبد السميع عثمان، (د. سنة)، **أسس علم الاجتماع المفاهيم والقضايا**، جامعة الأزهر.

- مختار رحاب، (2022)، مدخل إلى الأنثروبولوجيا، دار الراية، الأردن،

- منى يوسف نخلة، (د. سنة)، علم الآثار في الوطن العربي مدخل، منشورات جروس برس، طرابلس- لبنان.

- نبيل الحسني، (2009)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الامام الحسين، دراسة إسلامية في علم الإناسة المعاصر، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، العراق.

- هالة منصور، (2000)، **محاضرات في علم الأنثروبولوجيا**، المكتبة الجامعية، د. ط، الاسكندرية.

- موريس أنجرس، (2004)، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تدريبات عملية**، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر، د. ط، الجزائر.